

كتاب الجمهورية

Amly



<http://arabicivilization2.blogspot.com>

وهج الصيف

أسامة انور عكاشة



كتاب الجمهورية

وهج الصيف

Amly

<http://arabicivilization2.blogspot.com>

اسامة أنور عكاشة

كتاب الجمهورية

رئيس مجلس الإدارة

ورئيس التحرير

سمير رجب

رئيس التحرير التنفيذي

د. فتحي عبدالفتاح

سبتمبر ٢٠٠١

■ الفصل الأول

١- خط النهار في يوم سابق

الإشرافه الغنى :

مصطفى كامل

المتابعة :

صفوت عكاشة

نهار الصيف أبيض. يتماوج في الخطوط الطولية.
حيث تبدو المسافة من ناصية شارع "داير البحر"
إلى ناصية شارع المتحف في قلب الضفة الأخرى..
سفرة لها غرابة سفرات السندباد..

وحين انحسرت مساحات الظل المعتمة في الشوارع
الغربية اجتاحت وسط المدينة شمس ما قبل الظهيرة
وداخل عربة الترام الزرقاء اكتست الوجوه برقائق الرطوبة
الشمعية جففها نسيم المتوسط يتسلل من الشوارع
القصيرة المتعامدة على الكورنيش وطريق الترام... أما
قسمات وجه الرجل الجالس أمامه فقد بدت له تجسيدا
حيا لمنحوتة "قوتي" أحد آلهة مصر القديمة.. استغرق
في تأملها دون أن يعنيه بل توغل خلفها مع أفكار
رسبت في قاع الليلة الماضية..

لم يبدأ هو الشجار ولم يسع إليه.. فقط وجد نفسه يواجه ثورة حسن الغريب..

- رفتوك من الجورنال بلا سبب؟.. كلام فارغ.. أكيد وراء المسألة «عملة سودة»..

ماذا كان باستطاعته أن يقول لشقيقه الأكبر، وكيف يشرح له ما حدث في قضية «الرمادى»؟ أنى لحسن الغارق في التجارة والسوق أن يفهم فى ألعاب السياسة؟ إن الرمادى بالنسبة له اسم يراه فى الإعلانات ويسمع عنه ولكنه لا يدرك أبعاد تواجده وسيطرته..

- حسن! المسألة أكبر كثيرا مما تذكره..!

لم يقصد مطلقا أن يجرحه أو يهينه ولكن الجملة كانت كالطليقة الطائشة التى تصيب فتقتل.. وتحولت الليلة إلى كابوس شارك فيه الجميع.. سيد المرسى.. والحاجة «جازية».. و«أبله باطة» وباقى رجال وبنات وصبيان ونسوان البيت.. ولم يته إلا بالنسحابة إلى حجرة البرج.. وكان آخر ما سمعه قبل أن يغلق الباب.. صوت صفعة تلتها صرخة كانت فى الأغلب من نصيب البنت راما..

«من ضربك يا راما؟» سألتها فى الصباح وهى تناوله كوب الشاي.. وأجابته بأنها لا تذكر.. «كثيرون!.. لم يعد فى هذا البيت من لم تستغفره راما بسلطة لسانها حتى صفعها.. وكانت الحاجة تؤكد دائما أن البنت تتورد وتحمل وتضمن على الصفعات»..

بعدها بدقائق خاطبه «رفيق الجوينى» على الهاتف..

- كل شيء يمكن إصلاحه يا أبو حجاج.. ولابد أن تعود لعملك.. انتظرك فى البيت ظهرا.. ما صلة رفيق بما حدث؟..

رفيق جاوره فى «تخته» واحدة طوال سنوات الاعدادى والثانوى.. أحبه أكثر من أشقائه ولم يستطع اختلاف المسارات أن يضعف ما بينهما.. ظلا متلاصقين حتى بعد أن دخل رفيق كلية التجارة والتحق هو بالحقوق.. ثم رحل إلى القاهرة وراء حلم الصحافة وتهاويم المجد المأمول والشهرة الآتية لأرب فيها.. وبقي رفيق ليزير أعمال «شركة الجوينى» المزدهرة..

يعرف يوسف الطريق حتى ليمشيه مغمض العينين.. من محطة ترام جليم إلى الشارع الموازى بمجموعة السرايات و«الفيلات» الأنيقة للمجاورة والمواجهة لقصر الأميرة «فاطمة» الذى أصبح متحفا لمجوهرات أسرة محمد على الكبير.. وعند الناحية التالية العمارة الخمسينية ذات الطلاء الأصفر وحديد الشرفات وضلف «الشيش» باللون الأخضر.. وجانبها الغربى تنعكس عليه شمس ما بعد الظهيرة «زمان فى المشوار اليومى خلال الاجازة الصيفية»..

كان قلبه يخفق بشدة.. «معقولة؟» ما الذى أرجع ذكريات السنين الخوالى حتى تحرك ما خمد؟.. لا بد من مشر ما.. آه.. أدرك بعد لحظة أنه عطرها.. يعبق جو المصعد.. لا بد انها سبقت به بدقائق.. ولكن.. كيف؟ إنه العطر القديم.. أتراها؟..؟ أو تراها؟..

لم تكن هناك فسحة لاستطرادات أخرى.. فتح الباب.. وسمع صوتها.. قال رفيق وهو يسحب من معصمه..

- مفاجأة! ما رأيك أن ترى من لم تره منذ عشر سنوات؟..

المطر فى عز الصيف!

رائحة المطر وبخار الماء فى نوة «الفيضة الكبيرة».. وعطن كامن فى نسج «سويتر» من الوتر بروف مفرد على رأسيهما وهما يحاولان أن يحتبيا

بمدخل عمارة فى شارع فؤاد.. هل تختلط الدموع بقطرات المطر حقاً؟..
 الدموع ملحبة الطعم.. والمطر لا طعم له..
 - رفيق وعدنى بأن هذه الزيجة لن تتم إلا على جسثه..
 - رفيق فى ثانية جامعة مثلك.. ولا يستطيع أن يعارض أباً مثل أبى.. على الأقل لن يستطيع أن يجد البديل الذى ينقذ أبى من انهيار أعماله.. وقد جاء «العريس» على فرس النجدة..
 - وهل أقف عاجزاً وأراك تضعين منى؟..
 خفظت قبلة على خده منسلة بسرعة من تحت «السويتر» المظلة..
 يهتف فى أثرها: انتظرى حتى ينقطع المطر..
 تلوح له وهى تعبر إلى الرصيف الآخر حيث توقفت سيارة «التاكسى»..
 ثم تضم كفيها وتهتف: لن أنساك!..
 ويتحول خفيف الأمطار إلى هدير.. وتغيب السيارة خلف ستار البخار والرزاز..
 فى الشرفة كان الصيف حاضراً بقوة.. ولكن يوسف ظل يتنسم رائحة المطر.. وتقلصت أسعافه مع ألم خفيف فى المعدة!.. نفس أعراض اللقاءات القديمة قبل إطلالتها..
 من الظلال داخل حجرة الصالون الباردة.. جاءت.. تبعتها طفل فى السابعة..
 .. له عيناها وشفاتها المكتنزان.. واستدارة الجبين عند منبت الشعر.. ومابقى قد يكون من ملامح الرجل الآخر.. ذاك الذى كرهته دون أن تراه..! أيكون..
 - أهلاً يوسف!..

يدها المملودة تنفوس مسترخية فى توق تومده زماً ليلقنها بأصابعه..
 - الحمد لله على السلامة يا أم..؟ «تسحب يدها وتعلو خديها حمرة خافطة وتشحب أرنية أنفها»..
 - هانى.. سلم على عمك يا هانى!..
 يضافحه الطفل بسرعة ثم يفلت خارجاً قبل أن يميل عليه ويقبل جبينه..
 خلت الشرفة إلا منهما.. ولم تبد منها أى بادرة.. كأنها كانت تعد اللحظة.. وقبل أن يجد طرفاً لخيوط يجذبه داخل رفيق.. وهو يتحدث فى المحمول.. «عادته التى لم يستطع تغييرها».. بصوت جهور يتحدث عن أدق أسرار.. أمامه هو بالذات.. اتهمه مرة بأنه يتعمد أن يستعرض عليه.. ولكنه قال مدافعاً بأنه فى حضوره يحس وكأنه وحده.. ولم يفهم بعدها قصصه من العبارة.. يذمه.. أو يطربه.. هكذا كان رفيق دائماً.. يقول فى كثير من الأحيان ما لا يفهمه هو نفسه..
 .. ابتعد خطوات بمحموله.. أدارت ظهرها نصف دورة وكأنها تطل على حديقة القبلا المجاورة وعبرت خصلة شعرها مرمى النسيم المتلكئ.. على حافة الظهيرة.. نفس المسكر القديم «فيرست من أرابل!..» هى أخبرته وحفظ الاسم.. ولم ينس.. رده الآن كتلميذ يتذكر ألياناً من قصيدة مقررة..
 - مازلت تضعين الفيرست؟
 يلحظ شرعت أهدايه كما تشرئب فرس النوى.. «صلى صلى وأنا اسيبك.. تردية الطفولة حين تقع فى أسرهم تلك الجراة الخضراء»..
 رنت.. ثم همست:
 - لم أغيره أبداً..

عانتقه الجملة.. وأراحت رأسها على صدره.. وكأنها دعوة لاستحضار المشوان اقتررب لينظر بجوارها الى الحديقة.. ويهمس بدافع قهرى لم يصدق.

- عشر سنوات.. ولا كلمة فى رسالة؟.. ولا جرس تليفون؟..

انتهت لنداء طفل لم يسمعه.. وانثت خارجة بسرعة وكأنها لم تسمعه.. «كانت الغصة زمان تدفع بالدموع الى عينيه ويحبسها فيؤله حلقه.. أما الآن؟»

كان رفيق قد أنهى المكالمه.. وكان يعرف فيم يفكر صاحبه مستترا بالنظرة الغائمه..

- عادت بالأمس من الرياض وبقي هو.. تريد الطلاق!

وقبل ان يعلن أو يعبر عن دهشة الاستنكار المفتعلة.. واصل رفيق..

- المهم الآن!.. غدا أى يوم من أيام ربنا؟..

- أظنه الخميس؟

- سأمر عليك عند الغروب واصحبك معي.. سنحضر حفل عيد ميلاد أحد أولاد «الرمادى» الكبير.. وهناك ستنهى المشكلة من جذورها.. وقبل ان تنتهى الليلة سنعود لصحيفتك!

- أنا لن أركع لكائن من كان..

- كف عن هرائك.. لا أحد يريد منك ان تركع أو تسجد.. كل المطلوب

منك أن تصحبنى غدا إلى مارينا.. ودع كل شىء لى!

.. تلك وسيلته الدائمة فى السيطرة على مسارات الأمور حوله.. «هو عمدة أو ابن بلد بالمعنى القولكلورى.. أبو احمدات اسكندراني.. يستمتع بممارسة الأبوة على الجميع.. وله قدرة فائقة على بناء الصداقات

والعلاقات بسرعة البرق.. أما موهبه الكبرى فهى تناقضه مع نفسه بدرجة تثير القلق لدى الجميع.. يبدو أحيانا كريما إلى حد التسبيل والسفه ثم ينقلب بخيلا شحيحا فى لحظة.. يقع فى الحب بمعدلات قياسية ويبدو عاشقا رومانسيا يشفه الوجد ساعة فيكى كالأطفال ويصوم عن الأكل ويعتكف كالراهب فى صومعه بكنج مربوط ولا تخفى أيام حتى ينسى القصة برمتها، ولا يبدو مهتما بأى امرأة على وجه الأرض.. وحين تزوج لأول مرة وهو فى الكلية انفصل بالطلاق بعد اقل من عام.. ثم كرر التجربة ثلاث مرات وله من كل مرة طفل أو طفلة..»

- طالع خالى طلعت.. والولد خاله.. وخالى قبطان كما تعرف.. له فى كل ميناء امرأة.. وله أبناء وبنات بعدد شعر رأسه.. تعرف أنه قد دون أسماءهم فى كشكول حسب البلد واسم الام.. ولم يستطع حتى اليوم ان يحفظهم!

بغیظ لا يدري يوسف سببه الحقيقي لأن الموضوع رحلة مارينا وحفلة الرمادى كان يمكن ان يسمعه فى التليفون بلا ضرورة للمشوار من غرب البلد لشرقها..

- أردت أن افاجئك يا سيد الحمير.. تحضر فتجدها أمامك.. وأستمع أنا برؤية جنابك شاحبا مرتجفا توشك ان تفعلها فى لباسك!

- لم تتغير يا رفيق.. كأن الزمن توقف عندها.. ولم يتحرك لحظة..

- سمعت همستك وأنا اتحدث فى المحمول..

وراح يقلد همسته ساخرا عشر سنوات ولا كلمة فى رسالة؟.. ولا جرس تليفون؟.. لم يستطع ان يفسر أبدا «حياد» رفيق.. وكان «رحاب» ليست أخته..

قبل أن يغيب التاكسي وتواريه الامطار.. جرى خلفه.. رأى رأسها يستدير
ناظرا من الزجاج الخلفي.. عليه تنداح قطرات تحفر مجرى للدمع فى
عيون يغسلها ماء ملحي.. يذيب الضباب.. ثم اختلط البرتقالى بالأسود
بالرمادى.. وعاد إلى حجرة البرج.. يذفن وجهه فى وسادة رطبة.. ويكي
بين يدي فيروز: يا كتب اسمك يا حبيبي عالجور العتيق.. تكتب اسمي يا
حبيبي عارمل الطريق.. بكره بتشتي الذنى عالقصص لمجرحة.. يبقى
اسمك يا حبيبي.. واسمى بينمحي..

.. وليس فى الاسكندرية حور عتيق.. لكن شاطئها لا تنقصه الرمال..
أما الشمس فقد قطعت مسافة أخرى من رحلتها المكورة.. وهى تواجهه
من شباك حربة الترام.. لا بد أن يسوى الأمر مع حسن الغريب..
لم يحب امرأة فى دنياه كما احب حسن الغريب!.. حسن ليس مجرد
الأخ الأكبر وعائل الأسرة.. حسن أبوه..

يذكر يوسف أباه «طشاشا».. وربما كانت الملامح العالقة بذاكرته منقولة
من الصورة الكبيرة المعلقة فى حجرة «الجلوس» لعجوز يعتمر عمامة
ويرتدى «بنش» وعلى كتفه «لاسة» وتحت شارب كث تفر الشفاة عن
شبه ابتسامة تتناثر بفجاجة مع التعبير العابس للعينين.. لا شىء فيه.. يشبه
أيا منهم.. ولكن - تقول الحاجة جازية - لو ان الحاج خليل أزال شارب
لصار هو - يوسف - نسخة تطابقه!

وخليل عبد البارى الشفقى تاجر المانيفاتورة فى العطارين كان له مزاج
غريب فى تسمية أبنائه.. حسن الغريب.. وسيد المرسى.. وعلى
الاحسن.. ثم يوسف الاحلى.. كتب الثلاثة الأول بأسمائهم المركبة فى
شهادات ميلادهم.. وحين جاء يوسف كانت التعليمات الرسمية تمنع

الأسماء المزدوجة.. وكان هذا من حسن حظ آخر العقود.. فلقب
«الاحلى» كان كفيلا بأن يسبب له مضايقات لا أول لها ولا آخر.. وكان
إلى عهد قريب يتشاجر مع كل من يناديه به ولو على سبيل المزاح!
- ما الذى رماك على يا أحلى؟..

بلمها يوسف فالرجل غاضب منذ ليلة الأمس..
- حقت على يا غريب!

.. و«برطم» حسن بما يعنى أنه ليس غاضبا من كلمة قالها يوسف.. ولكنه
حزين لاستهتاره فى عمله لدرجة أن يعرض نفسه للفصل والضيعة..
- شوف بابن أمى وابويا.. المسألة ليست اعادة أو أكل عيش.. فهذه
التجارة مازالت قادرة على ان تواصل الاتفاق عليك وعلى عشرة غيرك!
لكنها مسألة وضع وحشية.. كنت أفتخر بك وأتباهى وسط تجار الشارع..
ويوم كتبوا اسمك فى الجورنال لأول مرة اشتريت كل النسخ من المتعهد
ووزعتها ومعهما «الشربات» ثم نأتى لى فجأة لتقول.. رفتونى.. لا
ياشاطر..بقى ولد خسران ومستهتر.. «.. يحكى الحكاية وامره لله..
وسواء فهم الغريب أو لم يفهم.. سيبتهى الامر».. وعبدالرحمن
الرمادى اسم «يرج» الدنيا.. لكن الصورة مضية فلاسباب يجهلها كان
الرجل يكره التصوير ولا يحب أن تنشر له أى صورة فى أى صحيفة حتى
وإن كانت صورة جماعية مع آخرين فى أى مناسبة!.. وحين ذهب
يوسف ومعه مصور الصحيفة الى تلك الارض الخضراء الانيقة فى
المتجّع الفاخر حيث يمارس كبار السوق ومليارديره رياضة الجولف كان
الارتطام..

- موضوعى كان تحقيقا عن الهويات الباهظة لارباب الشريحة الجديدة..

هؤلاء الذين يمثلون تلال الثروات الفادحة ويمكن للواحد منهم أن ينفق
 بذخ إجرامى على القطط والكلاب.. والسيجار الهافانا.. والمشاء الوافد
 يوميا من «الماكسيم» بطائرة خاصة! لم أكن أسعى خلف الرمادي بصفة
 خاصة ولكن وجدته هناك! وطلبت من المصور أن يلتقط صورته من بعيد
 وهو يلعب الجولف وأحاول أنا أن اقترب منه وأحصل على أى كلام!
 هاج الرجل وثار وحطم الكاميرا وأوسع حراسه مصورى المسكين ضربا..
 وثالنى بدورى جانباً من الغضب فمزقوا كم السترة وحشوا به فمى
 وسحلونى على الأرض حتى الطريق العام.. وفى المستشفى قالوا للمصور
 ان ثلاثة من ضلوعه قد كسرت بالإضافة الى ثنانيا اسنانه!.. ماذا افعل يا
 حسن يا غريب؟.. هل أقبل الإهانة وأحمد الله على النجاة واكفى على
 الخبر ماجور؟ إذا لاحترقت نفسى الى الابد ومات التوق الصحفى
 بداخلى.. فهل ترضاها لى؟

عبس حسن وقد هاله ما سمعه.. ثم هرش ذقنه كعادته حين يفكر فى أمر
 يحيره.. وانتظره يوسف حتى يصل الى الغاية التى كان واثقا من وصوله
 اليها..

- لو منك لضربته فى ساعتها..

- لو استطعت.. لقد كان حوله عشرة غيلان يا حسن.. الفحل منهم
 يضرب عشرة من عيتى فى نفس اللحظة!..

.. ولأول مرة لاحت ابتسامة مترددة على وجه الغريب..

- وما عاد يبدك إلا أن تنتقم لزميلك ولك بالسلاح الذى تملكه؟..

- كتبت يا بوعلى.. حنة دين مقال! مزقت فيه عرض أهله.. وقلت كل ما
 أعرفه عن أصله وفصله.. لم أذكر اسمه الحقيقى طبعاً وإلا وقعت فى

المحظور وكان نصيبى حكماً يخرب بيتى وبيت الجريدة.. ولكنى اطلقت
 عليه «النص نص».. نص أبيض ونص اسود.. ووصفته كأنى ارسمه..
 حتى لثغته المعجبية التى ينطق فيها الحروف المتقوطة بلا نقط! باختصار لم
 يبق قارئ واحد من قراء الجريدة لم يتعرف عليه.. وبعد صدورها
 بساعات قامت القيامة التى ألقنتنى فى حضنك لتكمل على بغضبك
 وتهاملك لى بالاستهتار والبطر بلقمة العيش.. كثر خيرك يا بوعلى!..

.. هذا الرجل الضخم.. الحشن.. الشرائى.. حسن الغريب خليل
 الشفقى.. يتحول إلى طفل منكس الرأس خجلاً أمام عتاب شقيقه
 الاصغر.. ويهمس منكساً:

- لم لم تحك لى الحقيقة من البداية؟.. تعالى لحضنى يا ولد

.. تغرورق عيناه وتتباه حالة الوجد القديمة.. سيترك المحل لصبيانه بعد
 قليل ويهرع إلى أقرب جامع أو زاوية.. يستلم العامود ويبكى..
 تقول الأم جازية..

«حسن ضيعته طبيته وقلبه الخفيف.. فصار اقرر اشفاقه رغم أن تجارة الأب
 مازالت تحت يده.. الفضل فى بقائها يرجع لسيد المرسى.. هو عقل حسن
 ودليله ومرشده.. ولكن سيد لا يملك «حظ» حسن مع الناس الذين
 يحبونه.. تهتف «راما» يحبونه «ويستكردونه».. تنهرها ابلة «باطلة» لان
 حسن عمره ما كان «كروديا».. فتشاكسها راما مؤكدة ان ديون حسن
 تفرق «التجارة» ولولا سيد لانهارت.. ويكفى أن على الاحسن قد خرج
 من البيت والمحل وأصر على تقاضى نصيبه «ناشف».. وها هو الآن وقد
 أصبح مليونيراً أو يكاد...»

أربعة أشقاء كفصول السنة.. لا يشبه أحدها الآخر وأن تلاء أو سبقه..

■ الفصل الثانى

.. ترى.. اى فصل فيهم انت يا أحلى؟..

لماذا يوسف الاحلى يا عم خليل يا شفقى؟.. يوسف لم يكن اكثرهم وسامة ولا اجملهم طلعة.. «بل كنت حين ولدت يا وله!.. تقول الام وتؤيدها باطة: يتحرب بيت جمالك وانت فى اللقة!.. اى عيون.. وأى خدود.. أم ترانا اسميتك يوسف بدون مناسبة؟!

ونهورى راما بلسانها لتهدم المعبد: سببحانه.. مسخك على كبر وسواك أقبح من قبارى الأعور..

«فسرتى».. قالتها «باطة» بلا مزاج غاضبة.. «يوسف».. كان ومازال أوسم رجال الحى..

ما الذى تفعله هنا فى دابر البحر يابن الشفقى؟.. لماذا لم تظل فى القاهرة وتقاتل من اجل قضيتك؟..

أى قضية يا وسواسى الأبله؟.. ومن أقـانـل فى سبيلها؟.. الرمدادى ام رئيس التحرير؟..

ام رئيس المؤسسة الذى اصدر قرار فصلى؟.. يا عم صلى! ذهبت الى النقيب.. واعضاء للجلس.. قالوا ان هناك بلاغا قدم للشرطة يتهمنى بتخطيط «هواية» باب «الشبح ستمائة السوداء» وسرقة محتويات تخص الباشا!.. ولا بد ان ينتظروا حتى ينتهى التحقيق ويتم التصرف فى البلاغ.. فهمت يا باشا؟.. انا فهمت.. الحل فى يد «الباشا».. ورفيق «لقطها» وهى طابرة ومن اول لحظة.. والغد هو الموعد.. اليس الغد بقريب؟ مساء الخير..

٢. خـمـسـة

دائرة حول المكان وزمنه:

مساء الخير يا ربيع يا ابن الشتاء وحفيد الخريف وتوأم الصيف الطويل !
حين رأى عبدالسارى الشفق الملاك المكلف بقصص الارواح لم يره
معه أحد من المتحلقين حول فراشه .. وحده لمحاه رغم نظره الكليل .
وابتسم فى حسرة ساحرة .. وهو يومئ برأسه ويهتف به: اجئت يا
ملعون؟ ..

مد يده وقبضت أصابعه على رسفى ..

أنا ماشى يا خليل ! .. "ويواصل خليل حكايته التى رواها عشرات
المرات .."

حين حرق السر الالهى وبرد الجسد .. ننت فى المسام المصغرة ازهار
بفسجية على شكل المحار غطت الجسد كله . وعلى حافة النافذة
حط طائر غريب لم يأتى من مكان فالشباك مغلق والباب وأنا
وحدى احلس بجوار الجسد المرهر وأنا ارتل القرآن من المصحف
مفتوح وكان يسمعى . ووجهه «الملتهم» يشى برحلة تعمر من
الشرق مع الشمس فى زورق ذهبى ! ..
وتحدث الطائر الغريب ..

الرحلة طيبة يا خليل والريح رخاء. والقوافع تركب الامواج
وتلفظ لؤلؤا مشهورا يعلو الزبد الالاماسى . تزوج يا خليل من جازية
بت عمك وأولدها حسن الغريب. وسيد المرسى . وعلى
الاحسن.. ويوسف الاحلى وعطيات التى استدعونها «باطة»
ورومانة تدللونها به «راما».

وصية راحل بعد رحيله! حدثت كثيرا من بيوت دابر البحر.. وعد
اصحابها من الاولياء الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون!
حسن الغريب الطيب يقسم غير حاث انه حين نزل الى «التربة»
مع جثمان ابيه خليل. رأى جسد الجدد عبدالبارى سليما ترقشه امرار
البفسج..

«هر سيد المرسى كسفبه حين سألته يوسف. نعم نزلت مع حسن
وعلى وعن نفسى لم انظر نحو كفن جدك!.. ربما.. سبحانه قادر
على كل شئ» اما على الاحسن فقد شخر هازنا وهو يشيح بده.
دماغنا يا سى يوسف.. دا كلام معرسين..»

. على الاحسن مكبر دماغه ولا يحب مجالس السمر وتبادل
الذكريات.. ونقول «ستى سوريا» عميدة نساء أسرة الشفقى.
خمس سنوات بعد المائة على الاقل وتقفز فى مشيتها كأبى فصادة..
وتكره على كراهة الشجرىسم. ولد منجوس اختطفه «المارد» ذات
عروب يوم «نوة» شتوية وخاض به إلى الاعماق ثم استبدله . لم يعد
على الاحسن مطلقا ذهب الى غير رحمة. وجاء بدله «على»
الانحس كما تسميه .

لا يدور الزمن ولا تتحرك الشمس وذاكرة الالشفقى تتحرك فى

دائرة ولا تعرف بداية ولا تصل لقطعة تغلقها.. الكل يحلمون اثناء
نومهم وحلال يقظتهم . «أحلى الاحلام أحلام القيلة»- كما تؤكد
الحاجة حارية..» وأحلامهم تفسر وتحقق وكأنهم موهوبون جميعا
لأيام أفقية تمر بعرض البحر كالسفن البعيدة ويوسف كان طفلا
حين رأى جده بعد موته بعشرين عاما يلثف بالبردة الخضراء ويزيد
من فمه وهو يتطوح على ظهر الفرس فى زفة «الخليفة غروب الليلة
الكبيرة لولده ابى العباس المرسى»..

«كيف يمكن هذا يا بوحجاج؟»

لا يمكن أعرف.. ولكنى رأيته . شبه صورة «الميه» الخالق الناطق.
وحين كبر ودخل المدارس وقرأ كثيرا كان يروي نفس القصة مؤكدا
انها مجرد «حلم» . فى ليلة سابغة السواد فى خريف عام مضى.
رأى فى المنام المظاهرات التى خرجت لتستقبل سعد زغلول باشا بعد
عودته من المنفى.. وسيد درويش البحر يموت فى نفس اليوم.
أحلام صحفى مثقف!..

خط الشفق التالى

بطلق الطريق بعد المحمى وابوتلات وابيوسف ممتدا حتى
مرسى مطروح وخط الشمال الغربى يرافق الصحراء والبحر..
تتناثر على شطآنه تلك القرى البيضاء تفوح منها روائح العطور
و«بشار الذرة» وشكائر الهامبورجر والحيز الفرنسى الطازج
وفى حضن الغرب تسقط شمس نهار آخر لتغيب فى مساحات
الرماد المحصب بحمرة شفقية حين شارفت سيارة رفيق مدخل
القرية..

تقريبا عند سيارة. «فيرارى» مكشوفة وقف ثلاثة شبان بملابس الحر وعلى ظهر حقبة السيارة صندوق من البيرة المستوردة..

وجوههم لاحتها الشمس وملوحة البحر والنسيم المشبع باليود والتسعت في اطراف انوفهم سمرة ترددت طلالها في الأذان وتقرشت في مواضع من الخدين بينما تلذت خصلات الشعر في رؤوسهم وبدت في مفارقها رمال دقيقة رقيقة تشي بانهم لم يغتسلوا بمياه الخلوة بعد حمام البحر..

لوح لهم رفيق فقذف له احدهم عبلة بيرة من صندوق الثلج سقطت في حجر يوسف!

- تعرفهم؟

- وستعرفهم بدورك بعد ساعتين حين يدلون ثياب الحر وتبدأ الحفلة!

- تبدأ الحفلة بعد ساعتين ونصل من الآن؟

ماذا ستفعل..

- سنقابل عبدالرحمن الرمادي يا ابني.. «الآن» هو الفرصة الوحيدة لنلقاه «على رواقه»..

- أو يعرف اتنا في طريقنا اليه؟

لم يجب رفيق على السؤال.. وانشغل بركن السيارة..

كانت الشمس قد غرقت تماما.. وأخلى الشفق طريق النهار لعسق لم يستطع ان يفرص سطوته فقد مزقته مد يدائته تلك الاضواء التي تآثرت في الشوارع القرية ومداخل الفيلات والنشاليات وحول حمامات الساحة. واسمعت من السيارات ومحلات السوق ومن

داخل البنايات موسيقى «الراب والبوب» واعانى حاكسون ومادونا والسبايس جبرلز. وبعض اغنيات مقتحمة لمغنيين مصريين لم يستطع يوسف أبدا ان يميز بينهم او يعلق الاسم الصحيح على صورة صاحبه. وربما كانت فيلا الرمادي الكبير هي اكبر فيلات القرية. وربما لم تكن. ولكن الحديقة كانت بلا شك اجمل الحدائق واكبرها. الوان من المصاييح والالوانات وانواع من أوراق وكرات واشكال الزينة لم يرد مثلها فيلا تسكن الشجيرات وتنت من احواض الورود. و«برجولات» ومطلات تنائر حول حوض سباحة مرسوم بتصميم سرىالى لافت للانتباه. وموائد في كل مكان. ومجموعة كبيرة من البشر يتحركون في كافة الأرجاء في سرعة وصمت. وهناك منصات للتصوير والصواريخ وماكينات الفيديو.

خرج صوته محوحا لجفاف طارئ في حلقه «أهي حلقة عيد ميلاد أم الاحتفال السنوي بتوزيع جوائز الأوسكار؟»..
انتهى!.. إنك لم تر شيئا بعد..

عموما.. هو لم يأت ليتمرح أو ينهر. وها قد حان ما جاء لأجله.. سار على ارضية كالمرايا «الأبد انه ذلك السيراميك الفاخر الذي يرى اعلانه في التليفزيون حيث تتأوه اعطاف الجمجمة الفاتنة وهي تناجي زميلها العالمي العجوز فيرد عليها بلكته الأسرة.»

قادته المرايا يسقه عليها بخطوة رفيق الى شرفة خلفية مظلمة بتكسية كروم كثيفة تتحلل اضرعها عنقيد من مصاييح مضاء بالوان شتى من الاحمر والاحضر والازرق وكان الرجل نفسه هناك. يدخن نرجيلة فاحرة من الكريستال الخالص يعبق دخانها في المكان معطرا شهييا.

«ما الذى أتى بك إلى وكر الانعوان؟..»

تقدم رفيق الذى حسن له الرمادى ولقيه بابتسامة مرححة! لم ينظر نحوه هو مطلقا.. بينما التفت إليه رفيق.. وبإشارة أمرة فاجأته هتف:

- اقرب وصالح الباشا يا يوسف!!

للحظات لم يدرك معنى فعل الامر.. «صالح الباشا»! رفيق يعرفه جيدا.. ويعرف أنه لن يفرط فى عزة نفسه ولن يرضى باختلوع رمقه مستفهما فى تحفز عمز له رفيق بركن عينه وهو يفرز أطافره فى لحم عضده ويهمس من بين أسنانه.. «اعتذر.. بوس إيد».. وفى نصр اللحظة مد الرمادى يده وكأه سمع ما همس به رفيق..

انحنى فقط عما يسمح له بالتقاط كف الرجل.. تجاهل فعل الامر وحركة التحريض وصمت التأهب.. وصافح اليد المقلوبة المسترخية «فعمت أنفه رائحة عطر نفاذه تخالطها حمصة عرق لم تفلح فى اخفائها أى طيوب مزيلة» رمقه الرمادى بعينين ناعستين.. ومبعدا مبسم النارجيلة عن شفتيه.. مرسلا مخروط الدخان من فتحتى أنفه وهتف بصوته الذى زأر كفرقة رعد شتوى يوم ملعب الجولف ونقطع الآن فى همسة مسترخية..

- تأدبت بما يكفى وعرفت أن الله حق؟..

سارع رفيق بحماس!

يوسف شاب طيب وجده.. أقسم لى على المصحف الشريف أنه لم يكتب مقاله وهو فى حالة طبيعية.. هى «ورة» شيطان يا باشا.. ومثلك جدير بالقفو والتجاوز عن الطيش!

- اسمع منه يا بن الجوفى!

فى عينه السوداوتين المحاطتين بهالتين أكثر سوادا.. ونحت حاحيه الكئيمتين المشعنتين اللتين تدوان كما لو كانتا فردتى شارب «سروم».. برق ذلك الوميض.. يصى بسمه نفضرش القسمات ملبئة بالترص والتحريض «الرحل يريدك أن تطاوع كبرياءك وتمتطى فرسك ليفشل وساطة رفيق.. ولا بد أن نفوت عبه غرضه»..

تملكنى الخماقة يومها فلم أفكر فى العواقب وأعترف بخطئى! «اللعنة على ما تدعيه من ذكاء.. الخماقة هى ما تورطت فيه اللحظة.. أفسدت بطولتك المؤقتة وحولتها إلى مهلة» ورفيق يتسم ملء شذقيه:

ألم أقل لك أن يوسف لا يمكن أن يعنى ما كتبه؟!..

«الله يا بن الشفقى!.. هنيئا لك بما سيملا جيوبك من تراب!»
نطمع فى أن تشمله بعضوك وتأمر الناس فى الحريذة ليعيدهو إلى عمله..

يفعل رنا ما فيه الخير.. اذهب واستمتعا بالحفلة..

اصطغ المساء بألوان طيفية تتحلل وتفصل بلا منسلور ونصاعد إيقاع الليلة ليشير فى الغبش المعتم عند الحواف سيولة نسك فى الصلال المختبئة عند أركان الخديقة وفى المساحة التى تلى الرمال المضادة بمصاييح الحفل.. عند رمى أمواج المد الليلي..

«الشاطئ الخاص» مسور بقضبان مركشة ولكها حديدية صارمة حارحها تحمعت وحوه يعلوها فصول الفرحة وعيون يلمع فيها

مضول يتطر الوليمة. ومذ بدأت أصوات الموسيقى المسجلة وأغنيات الموحة الحديدية. اسحب صوت البحر إلى خلفية لا تحت عنها الأذان.. وتلونت في الأرجاء بداية المعزوفة المربية لليلة تتكون بإرادة فاحرة ترسم الحنون
همس له رفيق

- ألم تدع من قبل ليلة مثلها؟..

بلى دعيت لحفلات مائين ورجال من الصموة وأعرف عن هذه الليالي أكثر مما تتصور..

انسى! كل ما رأيته طوال عمرك كوم.. والليلة كوم آخر ستكون أحلى ليلة في حياتك يميل رفيق دائما لصيغ المبالغة واستخدام أفعال التفضيل فالطبيب الذي يشير به هو «أحسن» طبيب في مصر والسائق الذي يقود سيارته هو «أشطر» سائق في البلد وطبعا أى فتاة يعرفها هي «أحمل» فتاة في العالم وفي كل الأحوال يتمخض رايه عن حقيقة مناقضة تماما..

- اسرح في براح الليلة كما يحلو لك ولا تبحث عنى عبد العجر وقيل الشروق سأجذك لنعود.

ولكى لا أعرف أحدا في هذه اللحة سأعرق وحدي في العرلة والمثل

. لم يسمعه رفيق فقبل أن يكمل حملة واحدة كان قد داب كفص الملح!

لا فواصل ولا حدود بين الصالات والأنباء والشرفات وعمرات الحديقة وما حول حوض الساحة وموائد الشراب متناثرة في كل

ركن والسقاة الذين ارتدوا زيا خاصا مميرا يتحركون في كل مكان كلات «ربوت» مبرمجة. وحركته المثلثة تقوده إلى مساحات ملل تنذر برغبة قريبة في الفرار ربما قبل أن تنفتح المسام لتتفجر منها تلك البللورات وتتناثر في تراكم مطرد عدد مسارب وأواب لا بطرقها إلا المدعوون..

في ركن عند المدخل.. وضعت مطاقات فاخرة تناول إحداها وقرأها.. برنامج الحفل وقائمة الطعام.. يا أولاد الزناة مرة.. في سنوات طفولتي الأولى كان يعيب في «الكرار» حين عثر على مجلة نشرت قائمة بطعام المائدة الملكية في الاحتفال بزواج فاروق وناريمان!.. لا تعد شيئا بحوار هذا القمحر..

سينحدث طويلا في سنوات كثيرة قادمة عن تلك القائمة وسيظل يروي العجائب لأبناء وأحفاد سينجبهم يوما سيصف لهم خم الطواويس وكسد الأوز المدخن ويبيض الاسترحون القزويى ومائدة صف من ابتكار أشهر المطاعم الباريسية مشقولة برحلة طيران خاصة إلى الإسكندرية بكميات سيلقى بصفها في أكياس الفضلات وعشرات الصناديق المليئة بالنبيذ الفرنسي والوسيكى الأسكتلندى تراق كلها على شرف الأنسة حفيدة عبدالرحمن الرمادى في ذكرى مولدها العشرين..

دائرة الحزن والحجون

أعرف تلك الوحرة تعودت عليها ألفتها ولكنى أذا لم أتعود الألم الحاد الذى يصحبها فى لحظة اكتمالها عفاؤها يلسع حانى صدغيه ويفرزان ما يشبه إبرة من الصلب من الأيسر إلى الأيمن..

فتمزق محرقة لاهية تشغل رأسه ككرة النار.. رأى «الحاوي» يفعلها ذات مرة في «داير الحجر» . تفخ خذيه وأمسك بإبرة حادة رفيعة وضعها في نار القوالب المشتعلة حتى احمرت ثم دفعها إلى خده الأيسر.. فمرت لتخرج من الخلد الأيمن دون أن تريق قطرة دم..

«هل يستطيع أى إنسان أن يفعلها يا عم زنارى؟». ابتم السمكرى المجوز وقد بررت من كرتين فى وحتنبه شعرات الشيب المتصلة فى اتساق غير متعمدة من شعرات أخرى كثيرة فى شاربيه وطاقى أنفه.. - الحواة فقط يفعلونها يا يوسف!..

الحواة أيضا يشربون «الجاز» وينفثونه فى نيران كشواظ حادة سريعة. ويقعلون أعاجيب أخرى تدهش الخلق وتجعلهم يصفقون طربا ويلقن بقدود «الوهبة» المعدنية فى طاقية الصبي الذى يدور عليهم مرددا عبارة معلمه «محبة وصلاة على السى» ولكن الشيخ شقيقى لم يكن من حواة انشارع رعم كل العجائب والغرائب التى جلبها معه من تلك الغلاد البعيدة هناك خلف صحراء وجبال وسهول وأنها تحوطها هالات السحر والغموض لم يفهم يوسف أبدا معنى تهويمات وترنيكات الشقيقى.. كما لم يفهم ما قالوه عنه..

جاء من المغرب!..

تتلون الكلمة فى مخيلته على النور بألوان الشفق! ويصاحبها صوت «الهيائى» يؤذن للصلاة من منشدات الراوية الراقدة فى حصن «طابوة» اشتقائه «أقام الهيائية مسجدا ليمارسوا فيه هواياتهم فى الآذان وترنيل القرآن فجميعهم دراويش يتمتعون بأصوات شجية»

ولكن الشقيقى أسودا هكذا اعترض الهيائى الأكبر.. صاحب القرن وقارئ السورة.

- المغاربة بيض البشرة وبعضهم أشقر! لم ينسجموا مع الرحل كادوا له كيدا فاضطر إلى «التعزيم» عليهم وتلا أوراده المطلسة بين آذنى العشاء والفجر. «رأه كل من على الأحسن وصديقه «براهوطة» وزنادى السمكرى وقد رسم دائرة «بالسلاقون الأحمر على قعر طست غسيل نحاسى وذبح «ترسه» حبة وكتب بدمائها رموزا وسط الدائرة ثم راح يعمى بصوت مدغم رخييم ويرقص ملوحا بذراعيه فى اتجاه قرن الهيائية..

حلت النكبة سريعا قبل أصيل اليوم التالى.. شب الحريق فى فرن الطابونة ولم تفلح كل سيارات الإطفاء فى القضاء عليه ولكنه توقف من تلقاء نفسه فور أن أنت النيران على كل أملاك خرطة الهيائى.. واخنتق الهيائى الكبير ومات أخوه.. ولم يبق من السلسال غير المؤذن الذى لم يحد بعدها مثذنة بصعدها ليحلحل صوته فى الآفاق.

يا دى العجب قالت باطة وكانت يومها أحلى فتيات الدائر ألم تمس النار شجرة خارج حارطة الهيائية. وكأما أحاط بها سياج محرم لا تعدوه. وقد اخنقى الشقيقى فى نفس الليلة رأته ساطة يحمل صرة نيايه وخلة أدوات السحر.. ويعبر الفناء من ريع «كحيلة» إلى الطابونة ويقف أمام الحريق ويستمس مغمعما.. ثم يلوح بيده ويهمس لباطة وهو يجاور منصرا: القدر لرب مقتدر! السماء خلفه يضرجهأ أحمرار النيران قل أن نخو وفوق السطوح

لن أغفرها لك يا حسن طوال عمري!..
صمره الخجل حين أدرك أنه لم يكن شهبا . بل افتتاحت الألعاب
النارية التي اطلقت ترغرد فوق الشاطئ والبحر والحديقة. إنانا بدء
المهرجان..

خط العمر في كفا العاشق

لقد رأى البداية صدمة لم يدركها إلا فيما بعد اقترت بلا سبب من
رواية المدخل يحرسها اثنان لهما جسد الراعين أو المصارعين -
يرتدون رى رحلا الأمن الخاص . ومعهما ثالث يبدو أنه يقوم بدور
الفاحص المدقق.. وكان هناك ذلك الفتى الوسيم ذو البشرة اختطبة
والعينين السوداوين «عينين باهرتي النضاد تتألقان بحيوية لن يساها
يوسف أبدا».. كان يرتدي تلك الثياب التي يعدها الشباب من أبناء
الطبقة الوسطى الصميرة للمناسبات . «الحقة السلى على الخجل»
ولكنها تبدو هي مهرحان آل الرمادي . حيرحا لمشاعر الانساق
والتناغم..

انسماته الوضيئة تملو وجهه الخجل.. وهو يبرز بطاقة الدعوة نادل
الصحمان بطرة ثم سمحا للفتى بالدخول قبل أن يسرع الثالث.
ذلك الفاحص المدقق ليتمرض طريق الشاب.. كانا على كسب منه
وقد لفته ما يحدث.. وأثار انتباهه..
أسف.. لا يمكن حضور الحفل..

معي دعوة.. ها هي.. وبها اسمي..
نزع البطاقة أمام عينه وهو يسأل والابتسامة الأسرة لا تبرح وجهه.
أتريد بطاقتي الشخصية لتطابق الاسم؟..

مرق شهاب فصاحت رامسا. الحمة أم ذبل وظللت احاححة جازية من
الجميع أن يرددوا معها. سبحتك ما حلقت هذا باطلا فقتنا عذاب النار
ودامت أحزان بيت الهيامي زمنا طويلا.. وبقيت أطلال الحريق حتى
عهد قريب.. وأبدأ لم تتمحى من الذاكرة حكاية الشقيطي! .
شهق يتابع أمحوبة التوارد وعيناها شاخصتان إلى أعلا تنابعا
الشهاب المارق كصل سيف بماني «وما أدرك أنت بالسيوف
اليمامية؟ هي فقط عبارة ترد في مأثورات البئر القديم كما ترد بيص
الهند.

وقف في الحصة الأولى يسأل الأستاذ تركي الأشوح ما هي بيض
الهند يا أستاذ؟

- نوع من السويق يا وحم!

- وأبها أفضل بيض الهند أم بيض الصين؟

صفعة الأستاذ وطرده . وكانت إهانة لا يمكن أن يتحملها زعيم فصل
الثانوية العامة الأديب الوحيد ف رأس التين الثانوية..

.. تركي الأشوح يفتنى زوجته غدورة صفيرة السن يعار عليها بكل
ما في صمره الأفل من جنون!

انتظره مع ثلة «الماقدين» عند محطة الترام في شارع «محمد كريم»
وهذدوه بأنهم سيزورون «المدام» أثناء عيابه ويقومون بالواجب
عوضا عنه..

وأمام وكالة الشفق في شارع العطارين صمره حسن الغريب
الأولى وآخر مرة.. قبضه له سيد المرسى وأوسعه ضربا.. كسر عليه
«متر القياس» الخشبي ثم جلده بالحذاء على مؤخرته

عبسة اضطرار مهني مضبط واجهه الرجل:

- ليس لها لزوم فأنا أعرفك .. وصيحتي لك أن تقصر الشر وتبرح المكان ..

لا أعرف سببا يضطرنى لهذا قبل أن أقدم هديتي لصاحبة الحفل وتطلب هي منى أن أعادرا ٣١٣١؟!

ودون أن يترك للأخرى أى فرصة لمواصلة الاعتراض أو المناقش انقلت من أمامه لم يجر.. ولم يتكأ .. كان وانقا. ولم ينظر خلف .

تورد وجه «الفاحص» ولم يدر يوسف - حتى بعدها بزمن ممتد والذي دفعه للتدخل اقترب من الرجل .. وهتف مؤبأ.. هذا الفتى يحمل بطاقة دعوة فكيف تحاول منعه؟ .. استدار إليه وقد أدهشه تدخل رجل لا يعرف. وما شأنك أنت .. تذكر فجأة فتهتف به أنت هو.. الصحفي في ملعب الجولف.

- نعم وكنت مع عبدالرحمن بك منذ دقائق.. تحول الموقف تماما. وأحسن أن الرجل يخشاه ويحاول أن يقرب إليه..

ولد أحقق وسبورد نفسه مورد التهلكة رسا يستر ومضى رافضا شدة أن يزيد به أيضا. ابتعد عنه حتى اختفى ولم يحدث أن رآه بعدها!

هل أحسن بالدوار؟ هم لم يزد عن كأسين .. أه لو رأك حسن أو الحاحية جازية إذا لطار الصواب وطارت معه أشياء أخرى كثيرة. مع أن حسن مثلا «حشاش قراري» وله في عالم الدخان الأرقق صولات وواد .. ولكنه لى يقتنع أبدا بأن الحشيش محرم كالحمر

- شوف يا ابن والدى.. الحشيش لم يذكر كالحمر في القرآن!

عجبا يا حسن.. حديث الرسول يقول.. كل سكر فهو حرام - كل مسكر. وليس كل «مسطل»..

كانت «الحلقة» منعقدة هي تمريرة السطح ورغم «الهواء» فقد دارت رأسه على «الريحة» مثلما تدور الآن.. لاند أنها لطشة «النبذ» على معدة خاوية..

أحلى خلف الفيلا تماما من السيارات ليكون مقر «للوقة المفتوح» مساحة لا نقل عن المساحة أمام جامع المرسى.. صفت بها موائد طويلة يعلوها كميات خرافية من ألوان الطعام واصاف لا يمكن أن نعبها ذاكرة.. وقف ويده طبق كبير يحاول أن يحصر ما يمكن له أن يتناول به وكان بجواره ذلك الرجل الأنيق الذي همس له بابتسامة ححول . كل ولا تسأل عن اسم ما تأكله. وضاف بعد لحظة عشت في أمريكا وفرنسا وألمانيا. ولا أعرف ثلاثة أرباع صنوف الطعام التي أراها الآن!!

على حافة السور الفاصل بين الحديقة ورمال الشاطئ جلسا متجاورين.. كل يحمل طبقه.. ياكلان ويتعارفان..

يوسف الشفقى.. صحفي!..

هاني الكردي.. أستاذ مساعد بكلية الآداب..

أسمل منحدر صناعي مزروع بورود صينية .. رأيا الفتى الخطي ذا العيين الفانتتين .. كان قد أقعى حوار بدوية عجور- ربما استجملت خصيصا- كإحدى فقرات الحفل وكان كفه في يدها.. لحملق في وجه الفتى.. ثم تسكب عيناها في كفه المفرد .

تغمض.. وتسارع أنفاسها..

- أنت العاشق والمعشوق .

تجهش فجأة بالبكاء.. يهتز جسدها في عصف . يشحب وجه الفتى ولكنه لا يفقد الابتسام.. تسكب دموعها على الكف المقرودة تقلبها لظهرها ثم تنحنى وتقبلها.. وتتلفض واقفة .

- إلى أين يا خالة؟

- ما عاد ينفع.. المقدور مقدور..

تجري وتعوص أقدامها في الرمال تنكفي وتهض. تصل إلى مرمى المد تركع على ركبتيها.. تملا كفيها من الماء المالح وتسكب على رأسها.

تسارع أنفاس الفتى ونعيب البسمة الوضيئة وتندافع الدموع من عينيه . يرتعد هائى.. ويقبض على يد يوسف وكأنه يعرف منذ أمد طويل وليس فقط من ساعة أو أقل . ويخرج صوته محنوقا..

- ماذا رأيت في كفه؟

وازداد أفق الليل حلكة . والتوت عصة في صدره وتغنى أن يجد سيلا للفرار.

٣. دائرة القمر والفتى

صلاة لبنات الجور

الوخزة تخترق جانبي الرأس عند فوديه! لا تبسرح هذه المرة تسد
حاحبيه إلى زاويتي الأنف يسأله رفيق الليلة عما به فيجيبه بالجملة
المعتادة.. صداع بسيط!.. يخرج الدكتور هانى من جيبه شريطا به
أقراص بفض منه قرصين ثم يأتى له بالماء هذه أقراص أمريكية
تقتل الألم..

لمادا لا يهاجمه الألم إلا في لحظة ينهأ فيها لمنعة من نوع ما؟ أياكون
نوعا من الدم المسبق؟ تردد طويلا في مواجهة ذلك الطوفان من
الدكرات المختلطة تتدفق على خاطره قافرة بلا نسق من عمر لعمر
ومن مكان لآخر. وأراد أن يهرب لكن الألم أعلق عينيه وداخل
السواد تقاطعت تلك الأشكال غير المكتملة مكوبة من السواد
والباصر. خطوطا ودوائر تقاطع وتراوغ يصاحبها إحساس من
عينان مصن لا يصل أبدا إلي درجة القبيء ولكنه يظل جائما حتى
تصفو الرؤية ويتبدد الألم..

مد يده تريد أصابعه أن تتشعث وتقرز أظافرها فى جسم لين..
سأوله هانى يده فى ثلثية سريعة غير مطلوبة.. كانت يده باردة..

— تريد أن تترك الحفل وتعود لمنزلك؟

— صديقي احضرني ولن يظهر قبل الفجر.

— معي سيارتي وبإمكانني أن أصحبك فالليلة غير معربة وتشعري بعربة مؤلمة! استطاع أن يفتح حفيه أخيراً.. وأسعده أن الأشكال الهندسية الناقصة لم تقطع مجال الرؤية كما تفعل دائماً وكان أول ما رآه ألعباً نارية ترعد في الظلمة العلوية.

— أشعر بتحسن ويمكنني أن أوصل الفرجة..

لم ير القمر إلا بعد أن قرغت عروص الصواريخ والألعاب النارية.. وصممت الموسيقى تمهيداً لظهور حفيدة الرمادي التي نصب المهرجان من أجلها..

احمرت السماء فأغرست حلقة الليل. وتورد قرص القمر المظلم في «حضور» فظ وكأنه يوشك على السقوط في قلب الحديقة

... خالته «روضة» جاءها «عدلها» فرحلت إلى بلد الزوج. قرية في ريف البحيرة تنبع مركز شبراخيت.. الرجل كان عمدة أو شيخ بلد أو ما شابه! وكان يستضيفهم شهراً في العطلة الصيفية من كل عام.. وعلى ضفاف الرياح البحري... رأى ذات ليلة.. «خفة القمر». تورد القرص مثلما يحدث الآن. وطاف الصبيان والسات بشوارع القرية يدقون علي الأواني النحاسية في ضجة توظف الموني وهم يهزجون ماشدين «نات الحور» أن يعف عن القمر ويطلقته من أسره...

قالت عجوز طاعة شهدت «هوجة عرابي» أن الحور لن يفلت القمر إلا بقربان. وليلتها تطوع الحاج «نوي» زوج حالة يوسف

فدبح نعبته «العبورة» ليفدى بها القمر. ولع سنا القرص المخوق منعكسا على الدماء الحارة.. فانفك أسر الأسير.. ولعلمت الرغاريد وهي زحام الذب تحلقوا حول «الذبيحة» سحنت دماء الكثيرين واقترح الفنى الذى يتزعم دائماً مباريات «الحكشة» أن يلعبوا في حور «أبو شوشة».. واللعبة في الجرن تؤدي بطقوس لا بد أن تنتهى باختباءات سرية في «القاية» الجافة خلف الجرن أو في دغل الصمصاف المحاور «للمصليّة» على حافة الرياح. وربما تسلل البعض إلى أبعاد في حسيّة «درويش» حيث تعطي أوراق الموز العريضة مساحات اللقاءات المعصية التي تشوبها المخاوف المرتعة من الانكشاف أو تجاوز المعاشات الطاهرية في ليلة القمر المختق تتمدّد في ردة إثم ظل يؤرق أمداً طويلاً.. لم يكن قد مر وقت طويل على «بلوغه» ودخوله دنيا «الاحتلام».. وكانت ليلته تعاني دائماً من الانزواءات التي تحاول معاجلة «الفوران» والاستمنااء يحلف عنده دائماً إحساس بالذب والدم والقذارة خاصة بعد أن سمع الشيخ «جاد» ينصح الأولاد في راوية دابر البحر ويتلو عليهم حديثاً يدور حول «ماكح يده»! ولعله ليلة «الجرن» لم يفكر في أكثر من لعبة «رحالة وسنات» التي يمارسها الجميع ولا يستطيع أحد أن يتخطى فيها حدود المذايعات «اللمسية» حتى فوحيء بالولد «جريشة» يمد يده ويمسك عصوه!.. أذهله أن يكون جريشة بالذات من هذا الصنف فهو أضحهم وأكثرهم عدوانية كان أبص البشرية مكتنز الحدين.. «أجرودى» ولكنه كان شرساً ويستطيع أن يضرب «أتخن تخين»!

هل أطاعه خوفاً . أم أن فورانه هو الذى قاده خلفه إلى جنبه المور؟.. لم يستطع أن يجيب علي السؤال حين خطر له وهو يتقيا في بيت خالته ويتظاهر بالمرص ويصر على العودة إلى الاسكندرية فى الصباح .. (جريشة ضربه بلا سبب بعد أن فعلها معه وهو يحذره من السوح بالسر . والواقع انه لم يبس بنت شفه ودرس الامر في سابع ارض . بل وأقلع تماماً عن رياره حالته وعن شهر العطة فى القرية)

أفاق من رحلة القمر المحنوق فى القرية .. على قمر آخر يخشق على البحر . احفل وارعد .. حين فطن الى انه مازال ممسكاً بيد هانى الذى اندمج فى الفرجة .

صفان من نافخى الأبواق يرى أبيض موشى بحبوط ذهبية بطلقون حن «الأوفر تيرة» وعلى بساط من طافش العجم الثمينة يتند من داخل الفيلا إلي حوض السباحة .. جاءته تحطو وحولها كوكبة من فتيات وفتيان الأسرة . أمواج من الجمال والثراء والعطر تداح علي ضفاف الليلة ولا تعباً باختناق كل الأقسام فى مجموعات المحرة!

.. وأنهار من العسل المصفى وتزلق علي المشى كقطرة عسل على سطح بللورى سمع كثيراً حكمة تتناقلها ساء الأسرة عن «ستى سوريا» أنها قالت «الحاء والعز عسل البنات . «وهالة» بنت أكر أولاد «عبدالرحمن الرمادى» . وأقربهم اليه . والذى يدير امراطوريته المالية مترئساً علي أشقائه الأصغر منه ..

لم يحب عبدالرحمن ناث . ولم ينبج واحد من أولاده سات إلا حسين الذى أحب وحيدته «هالة» فأصاحت قرة عين الرمادى الكبير .. ودره الأسرة التى تحاط بغلاف من «الكريستال» غير القابل للكسر أو الاحتراق . فقط يعكس الأضواء عليها لتتلاها وتتحول إلى ماسة لا تجرؤ العيون على اقتحامها! لكن عيون «الولد» فعلتها!.. والصيف هو السبب!..

حصيرة الصيف واسعة!.. والبراح يتمدد بطول الأزرق العجوز! . وهالة لا تحب أن تسجن فى حوض السباحة الفاخر .. تريد المالح بأواجه المتلاطمة وتحدياته الخطرة .. وبعد أن ثارت وهددت وأضربت عن الزيارة اليومية التى تهدده عواطف الرمادى الكبير وترطب جفاف أعماقه الهرمة صدرت الأوامر بإبعاد احراس الذين ينزلون البحر معها لحمايتها..

. وكان الفتى الخطي ينظر على ناصبة موجة... حين رأى عروس البحر

تجمعت حبيبات الشهد علي السطح الأملس وتلامست.. وتجمعت فكوت قطرة . تخللت القطرة ومضات بللورية فصفتها.. تكورت... وتدهجرت.. انزلقت... وأول النهر قطرة مطر.. أو قطرة غسل... أما البحر فلا يجرى في تيار السكون.. وموجه بصخب وينمرد.. يتحرق للقاء النهر عند المصب... (مرج النهر والبحر إذ يلتقيان... سبحانه!)

سماء أبوه «زين العادين» واختصره الجميع إلى زين! من سوق «غريال» أتى.. ذات صيف يحركه الفضول ليرى ما يسمع عنه...

«رحلة يوم ونعود آخر النهار!.. نسبح في بحر ماريبا؟ لن يسمحوا. العبور إلي هناك أصعب من تخطي الرزخ ودونه اختيار الأعراب! لكننا شياطين وممجونين بماء العفاريث! لن نستطيع!.. راهتوني...»

استطاع «رين» في ذلك النهار أن يمتطي صهوة البحر.. ليرى العروس تخطر على حبيبات الزبد..

.. (ورأى الشاطر حسن عيون ست الحس فهمام بها وهامت به .. وكانت بينهما بلاد الله وخلق الله... اليها سيقطع الصحاري والقفار ويمر سلال «الغيلان» .. سنسأله أمنا العولة عن كلمة السر فيلقى عليها السلام.. وستسمح له بالمرور.. لولا سلامك سبق كلامك لأكلت لحمك قبل عظامك) تشير له إلى مفارق الطرق.. طريق الندامة. وطريق السلامة وطريق الذهاب لا يعود!...

وأخطأ الشاطر زين عند المفترق!

.. تنوهج في الشرايين نشوة رغبات حارة.. تلسع تحت الجلد .. تمزج رطوبة «أب» الثقيلة بنسيم البحر برائحة الأعشاب المشبعة باليود وأبحرة الطعام الممد في محلات أمريكية الأسماء .. ومن متجر يبيع الأشرطة تنبعث من المجسمات الصوتية أغنية تتحدث عن الحبيب الذي هو نور العين وشاغل القواد.. وفي شرفة قريبة من النحر راديو كاسيت صغير يذيع أغنية لمطربة تتغنى بأشعار نزار ونحكي ما همس به في أذنها وهو يراقصها..

الظهيرة في حضن البحر دبكة تنأب وملمس الجلد الدافئ في

الظل يسرى بالخدر حتى السماء. ، فإذا التقينا تقطرت في الأشواق حبيبات سائلة من شمع الشهد

شفتا زين.. وشفتا هالة... كانا يرتشفان ويشرقان بنحرة لأذعة.. من كفى صيف مدرار تظفر سماؤه سيلاً من غسل!...

.. ولم تكن الجمة بلا سدة .. وكان المعبد يخفى رهبانه في الأروقة المعتمة. ريش الكل بين الللال .. وتكررت قصة الخلق والعصيان فالسقوط...

لحامد عبدالرحمن الرمادي الابن الأوسط ولد بُدُء للعرش.. والخطوة الأولى هي الحصول على انة عمه قرة العين ودره الزمان...

حاصر حامد الرمادي. وهالة حسين الرمادي.. ليسا فقط ابني عم ووارثي الامبراطورية.. بل هما رفيقا طفولة وصبا وزميلان في الكى. يو سى (احروف الاولى من الاسم الانجليزى للجامعة الأمريكية في القاهرة. علامة الجودة، ودلالة التميز. وأروقة القراية المكملة لوجاهة أهل الزمن الجديد...).

خط طيران النورس

حين تخفق أسراب النورس البيضاء على صدر البحر الأزرق وتحط لتلتقط القوت فتبدو كأنها بعض من ربد الماء .. تصلح موضوعاً للوحة. أو خيالاً للشاعر. ولكنها حين تقترب لا تبدو جميلة فقط عقبان بحرية شرهة دميبة!

من يستطيع أن يختطف سمكة من منقار المورس؟ من لا يسمع

صراخها نقاتل فتقتل من أجل ما نحوره؟ زين العابدين لم يسمع... ولم يعرف شيئا عن النورس!

.. وهالة بالنسبة لجاسر حياراة لا تناقش وهي جزء من مستقبله الذي لا يمكن لكائن أن يعث به! لم يسأل نفسه هل اشتعلت نيران الغضب والنقمة في صدره لأنه يحبها أم لأن هناك من يسنازه امتلاكها..

— شاهدوك تعبين مع صعلوك!..

— هل بعد صعلوكاً وهو سعيد حصل علي الماجستير وبحضر للدكتوراه؟

— تعترفن؟

— أجه!

جاسر لا يستطيع أن يمس شعرة من الماسة الحد والابن الأكبر. والنصح لم يجد معها وحين صارح عمه بالخطر قال (لا نملك إلا ابعادها... وتأديب الولد!)

أحضروا له «زين» ذات مساء. لابنه ثم حذره. ثم سه. وفي الخارج تلقفه مجموعة من الأوعاد أوسمعه ضرباً حتى حطموا عظامه. ألزموه فراش المستشفى شهوراً طويلاً. ولكنه يوم خرج كانت في انتظاره!..

— أهو نفس الفتى الذي قرأت له العرافة كفه؟

— هو... زين العابدين!..

نظر يوسف إلي هاني طويلاً (أنت تعرفه إذن؟)

— هو سعيد في القسم الذي أعمل به أستاذاً مساعداً...

— ولكنك لم تأت معه؟

— كلا.. فأنا مدعو من المعسكر الآخر..

وصمت الرجل بطريقة فهم منها يوسف أنه لا يريد أن يواصل الحديث في الأمر! ومع ذلك لم يستطع مراوغة فضوله أهى من أعطته بطاقة الدعوة؟..

أزححته سذاجة السؤال ولم يضايقه أن يتجاهل الآخر الإجابة!... وتعلقت كل العيون بصاحبة العيد... وامجرت الموسيقى مع أصوات نغمات أغنية عيد الميلاد «هالة».. تحيط بها حلقة من سات الأسرة تذهب لتطبع قلمة على خد الحد الذي يتقدم بين أولاده ليرافق حفيدته المعبودة إلي كمكة العيد الفاخرة ذات الطوائق العشر وتطفأ كل الأنوار. تبقى فقط عشرون شمعة ترعش شعلاتها. وتبدو تحت الضوء الخافت للممر المختوق كأنها جمرات تنقد في أحشاء رماد أسود... حتي تطلق الصواريخ الملونة مرة أخرى وتطفئ هالة الشموع ويصفق مئات المدعوين وتعود الأنوار للمكان مع احتضان الرمادي الكبير لحفيدته وهو يهديها قلادة الألماس المربعة بواقيت زرقاء. همس هاني مبهوراً على عنق الفتاة ثروة لا تقبل عن ثلاثة ملايين!...

كيف استطاع زين العابدين وسط حلقة الحصار المحكم حول الفتاة أن يظهر فجأة أمامها، تسبقه ابتسامته العذبة ويديه علبة المخمل الزرقاء ويقدمها.. ويهمس...
— كل سنة وأنت طيبة...

دائرة للقربان

القارب ينزلق في بحر ربحه رخاء لا يتنبه لدوامات الأعماق
إذا أغمض عينيه أحس بالدوار . يترك نفسه أحياناً لتيار يحمله في
قلب الظلمة أمواج من مخمل لين تداعب أعطافه . تغريه بوش
العفوة . يستسلم حياً لأحاسيس الكمون داخل الرحم . وذكريات
مطموسة لم تبت منها إلا فرق مشعته...

رائحة «المغات» المحوح تعبت في الحجرة محتلطة برائحة لبن الأم
وكشاة الهواء الراكد . لا يوجد منفذ ، فالشباك مغلق حتى لا
تتعرض الأم لنزلة برد تسلمها لحمى النفاس . الباب مفتوح على
عمر طويل لا تطاله الشمس مطلم أبداً كالقسو القديم في بيت
الربع .. و«الناموسية» تحيط بالفراش من كل جانب . وكل شيء
عطن ملبل . فطوال الشتاء لا تحف الثياب ولا الماشف رطوبة
الإسكندرية حاضرة في شتائها وصيفها .. ولكن «المبة» السقف
الكليلة تسقط بصيصاً على وجه الوليد . تلمع عيناه الواسعتان
يصلى الجميع على النبي اتقاء للحسد . تقول «الداية» وهي تدفس
اصبعها السبابة في سقف حلقه «باللحوس» بسم الله ما شاء الله
الولد في جمال سيدنا يوسف!

... وسموه يوسف الأحملي! (أما نصر دائماً علي أنه «خشر» ولم
يعد فيه ما يمت للحلاوة بصله .. تكرهه؟ راما؟ لا أحد يعرفها
مثله . ولا أحد يحبه مثلها! بينهما ذلك التعلق الغريب الذي يعبر
عن نفسه دائماً بكل ما ياقصه! قدفته يوماً بحجر حين أغاظها
فشجحت حاجبه وانهمر سيل الدماء مرعباً... وسقطت هي من

طولها قاطعة النمس ولرمت فراشها يومين كاملين لم تحف لها دمة
ولم يرقأ لها جفن! وفي يوم آخر ضبطها في حصن حسنى السماء
تحت السلم، رقعها علقة اهترت لها أركان البيت . ولكن أحداً لم
يعرف أبداً السبب الحقيقي . قال للجميع أنها سبته وأطالت
لسانها عليه... وقبل أن ينام دخلت عليه حجرة البرج . قبلت يده
وبكت وهي تقسم له أنها «أول نوبة وآخر نوبة».. وطيب خاطرها
وصارحها بأن أكثر ما ضايقه في الأمر أن يقبلها صبي السماء
وقطانه مقعم بالزفارة!

. لماذا تذكر راما الآن وهو يراقب استحاب هالة من وسط
المحتفلين إلى داخل القصر والدور الأعلى شرفة تطل علي الجانب
الأحر للحديقة . الجباب المعتم الخالي من فعاليات المهرجان!
(رددها لنفسه وهو يصحك) البنت لا بد ستفعل كما فعلت راما.
حاصة وقد لمح بطرف عيه الولد زين يحتفى حلف «البرجولا»...
تختلف الأماكن باختلاف الطيقة. راما تحت السلم .. وهالة بأعلى
الشرفة.. لا يدري ولم يفهم لسنين طويلة بعدها حقيقة الدافع
الذي حركه ليتسلل متابعاً خطوات الفتاة (عزيزة الصحنى؟ كلام
فارغ!!) لكن الذي فاجأه حقيقة أن يلتقي بهاي يفعل نفس
الشيء... (زعم الدكتور فيما بعد أنه كان يقتفى خطوات صديقه
«زين»)

والله؟.. وأين زين؟..

آه يا زين العابدين... يا ورد متورّ جوه البساتين!
قرا كثيراً عن علي زين العابدين . ذلك المعشوق من آل البيت

ابن الحسين معشوق المصريين . ليس كل المصريين فهناك هؤلاء المحتفلون بعيد ميلاد حفيدة الرمادى الذى لا هو سنى . ولا هو شيعى .. ولا ملة له بين أهل الأرض

. قبل أن يحطوا أحدهما أول درحات السلم الصاعد للطايق الأعلى . اندفع من بينهما هابطاً كالسهم فتاهما الخطى ذو العينين النجلاوين ..

يجرى رين عارياً الحديقة إلى الظلمة الداكنة خلفها . وتسهه الشياطين ..

كان هانى بهم بالحرى خلفهم قبص يوسف على ذراعيه بمنعه

— أشعر بخوف قارئة الكف ...

السمعت الدموع في عيود الرجل الرقيق . ولكن يوسف سأل بهجن:

— وماذا يمكنك أن تفعل ؟ دعه فرما استطاع أن يملأ منهم .

خط الدم (لحطات الوعي الأخيرة في ذاكرة الصحية)

لم تذكر نشرة الأرصاد شيئاً عن خسوف منظره فكيف اختفى القمر ؟

سأل نفسه وهو يربص خلف سيارة في الساحة الخلفية انعكس الضوء الأحمر على وجهه في مرآتها الجاسية وأنفاسه تتسارع . فى صدغيه ينفض دفق دموى وصدرة ينشق تحت ضربات هائلة .

«هالة! .. ماذا سيفعلون بها» ..

صحة الأقدام والسيقان التي تقفز فوق سطوح السيارات المترصة

تبدو وكأنها إبقاعات تعرفها فرقة طول جنانزبة ... وملوحة العرق تكوى جفنيه ...

. مالك يا زين ومال بنت الرمادى ؟ .. ومال الاسان وقدره ؟ .

[رسالة الماجستير كانت عن القدر في المأساة الإغريقية أمه بائعة

الخردوات في سوق غسبريال شخرت وهى توبخه ... بلاهم ..

حابتقى دكتور في إيه ؟ .. ياخى اتلهى . افنكرتك ستصح دكتور

فيما يدهونه بالكمبيوتر ! .. نطقنها صح يا زين ؟ .]

. بطقنها صحبة يا أم زين ! ربنا يخليكى ادعى لى أخلص

الليلة .. ساركع علي ركبتى

. وأقبل رأسك ويدبك وقديمك وأتوب أسامك على المصحف !

الخطأ التراجيدى يترصد المصير !

ويفاجئته ضوء مهر من كشف طوارئ يوحه أحدهم ..

(المصير ؟ .. أى بطولة فيما تمضى إليه ؟)

تثلحت قطرات العرق البازفة من مسامه .. ولم يتبين ما خلف

الهالة المشتعلة ..

انصب حاسر الرمادى مسح عرقه مكلتا يديه . ولهائه بدوى في

أذنيه كالذي ..

— هاتوا الكلب والحقوا بى ...

خارج كردون القرية ... في مساحة معتمة إلا من ذبالات القمر

المحنوق .. على الشاطئ كانوا هناك وفي البحر آخرون يدورون

بقواربهم في انتظار أصوات محركات القوارب يحفيها هدير

الموج والضجة الصاخبة في الحفل القريب ..

■ الفصل الرابع

أدرك زين ما ينتظره... وهم يدفعونه إلى المياه... (عوام يا عوام
اسبح يا بطل السباحة... وابحث عن عروسة بحر تعانقها يا ابن
الحرام...) صفعة ولكمة وضربة على الرأس... وانكماً في المياه.
طفرت دموعه... آه يا أم زين... آه يا بوياء... يا أخواتي...
آه يا هالة!...

طعم الماء المالح يحتلط بطعم الدم . واصوات محركات القوارب
تعلو.. وتقترب!.

٤. خط الدم

ضحى اليوم التالي

أجمل ما فى حجرة البحر هو نفسه أسوأ ما فيها، شرفة بعرض الجدار تم تقفيلها منذ سنوات لتصبح جبراً من الحجرة. ولم يكن الجدار الذى أضيف سوى مجموعة من ضلف متحاورة «بفصلية» صنعت من إطارات خشبية تضم مربعات الزجاج التى تكشف البحر للرؤية.. ولها من الداخل سنائر صنعتها «باطة» من الكريتون المشجر.. تصمم وتنفرج وفقاً للمراج.. وليلاى يحرص يوسف على إغلاقها قبل أن ينام لأن دخول شعاع واحد من ضوء النهار كفيل بإيقاظه فلا ينام ثانية

أحس بالوخز فى حنكته تحت جفنين مطبقين على مرثبات لونية معتمة يتحللها ابضاض يتمدد ليسفجر فى وقع سوداء تسبح فى فوصى واستنطاع أن براوغ الوخز مرة أخرى ولكنه أحس فى نفس اللحظة بمشائه تلح ممثلة.. واضطر لفتح عينيه.. ليقنحمها جحفل كامل من أشعة الشمس... آه نسيت أن تصرد الستارة قبل أن تنام! ولكن متى تمت؟ متى عدت؟.. وأين كنت؟... «مبعاد رفيق وحفلة آل الرمادى...»

ضربته مطرقة على رأسه حين حاول أن يركز ويستدعي الذاكرة!
لعله مجرد حلم .

«انظر» رتب الأحداث وفقاً لزم من حدوثها! حين اختق القمر
وصدحت موسيقى العيد وامتدت يدها مع يد جدها لتقطع
الكعكة... لا.. قبل هذا... رفيق يختفى.. وهاني يظهر... من
هاني؟ آه نعم.. أستاذ أدب إنجليزي أو ما شابه وحاء معه الفتى
الخطي ذو العينين السوداوين... كلا الفتى كان قبله... أو ربما جاء
بعده. «جيبها» . ياعم عبدالحليم ليس هذا وقته . وقف يصرع
مشانته في المرحاض وهو يسد حبيته الملتهب لبلاط «القيشاني»
البارد...

«على مهلك» . واحدة واحدة الفتى اقتحم دائرة الأسيرة! قدم
هديته للثقت الفرس!

البنيت الفرس؟.. مجرد تشبيه.. ما علينا.. بعدها اختفى
واختفت رحاب! رحاب من يامس طول؟... بنت الرمادي
اسمها هالة! وما له هالة! رأيتها تحتمى وتصبعد السلم
الفتى الخطي هو الذي اندفع نازلاً وطاروا وراءه كشباطير
الجحيم...

الآن اتصحت الليلة . وأسمرت الذاكرة عن المشهد الأخير على
شاطئ السحر . أقعى جالساً القرفصاء في أرض الحمام.. لم
يشعر حتى «بأستك» اللباس وهو يلسع خصتيه... خارت قواه...
ياولاد الذين.... شعر بمعدته تصعد إلى حلقه... ولعابه يجف في
فمه...

«لعله حلم؟»

لست الصديق ياسى يوسف حتى تحلم بالكواكب الساجدة
والقنرات السمان... (يارب اجعله مجرد حلم... لعلنى أفرطت في
الشراب واستلقت على الرمال فأخذتني سنة من السكر البين
وفيهما حلمت! أجل.. هذا هو ما حدث!.. كلا.. إذا كنت قد
رقدت صريع ثمالك فمن الذى أحضرك إلى البيت؟.

وضع رأسه تحت «الدش» . كانت المياه باردة (الجدار الذى تتخلله
مواسير المياه مشترك مع الجار ولا تطوله شمس)...
فى الفجر نزل الطفل وصاح سيارة هانى تبله الرطوبة. وضع
كلنا يديه ثم مسح بهما على وجهه... وركب..

لم يتبادلا نظرة ولا كلمة طوال الطريق... كانت دموع هانى تنهمر
فى اتصال لا ينقطع وكان ينشج أحياناً كالأطفال... وعوى مرة
كالمرأة مكلومة. وعد ناصية دابر البحر.. نزل يوسف.. ثم انحنى
بطل عليه... أراد أن يقول له أى شىء:

— ربما نجح من أيديهم؟!

لم يجبه... وغاب بسيارته فى شبورة الفجر!

جاءت «راما» بطق النول بالبيض و«التحديمة» . لم تحده فى
سريره.. نادته فلم يجب. اشرأت بعنقها من خلال باب الحمام
المفتوح .

— حبة جديدة من خيابات دلوعته يامه!.. بسلامته نائم فى حوض
الدش بهدومه! لحفته باطه وأم صبحى خادمة الأسرة الدائمة فى
الوقت المناسب.. لم يكن يوسف نائماً... كان يفرق!

حين توهج البحر

الظهيرة تأتلق بغلالات كهالات الماعسيوم . وعلى السطح المائع الأزرق تسلالاً آلاف النجمات القضية . ووسط مجموعة من السابحين كان مستلقيا على ظهره . لونه الحسلى لم يشحب ولم يزرق وجده لم ينتفخ وإبتسامة دهشة ثابتة على قسماته (ماذا رأى فى الأعماق المعتمة ؟ صفوفاً غير مكفنة من عرقى أرملة أخرى بقيت فى الغمر لا ترح وترفص الصمود للظهيرة الحارة؟).

أما العيانان الجلاوان الشاحصتان سظرة رجائية إلى الفراغ فلم تنغلقا ولم تأكلهما الأسماك...

سأبج بحواره سألته عن قدرته على العوص كأنما أنفاسه واجتذب السؤال سابع آخر أحاطا به لاحظا الجروح التى طلت غير مندملة رغم الملح الذى امتصته.. أدركا فى لحظة معاً أن..... وتوهج البحر!

خط الدم

قال الجد لأبيه فى حضور الحفيد الفتى والحفيدة الفتاة

— حاسر وهالة يعودان إلى القاهرة ويتزوجان قبل أن ينقصى الشهر!

ولا أحد يجرؤ على معارضة الإرادة السية! ثم أشار للجميع أن ينصرفوا إلا الحفيد! جلس الشاب ذو الأنف المموح (يدو وكأنه كسر فى شجار قديم) والشعر الأكرت (ورثة عائلة الرمادى) سمع مرة من إحدى عمات أبيه أن الجد كان يدعى فى شبابه

«عبدالرحمن الأكرت» وهى تحمل معنى مزدوجاً... يقول ابن عم بعيد مطرود من جنة الرمادية.. أن المعنى الآخر لا صلة له بالشعر الأكرت وإنما ينسب لتعرض عبدالرحمن فى أيام فقره لكثير من «الضرب على القما»

... جاسر نفسه طويل القفا... وله تفاحة آدم بارزة فى «سيميرية» تنسق مع الأنف الطويل المموح رفقته جده نظرة هميقة. وأشار له بأصبعه ليقرب منه. أصبح وقد احبى راكما بين يديه... فأمسك بأذنيه فى وقت واحد وفركهما بغلطة لم يصرخ الفتى احمر وجهه فقط وحقظت عيابه بكرامية خرساء.. وأتبع الحد قرصة الأذنين بصمعة وهمس عشرت الشرطة على الولد!

— كان ذلك متوقفا وإن حدث بسرعة غير مفهومة...

— سيكون هناك تحقيق... والعشرات رأوا الفتى فى الحفل!..

— سكر... فنزل البحر.. فغرق!

— الجروح والحدوش ستلير الشكوك!

ثرثر الفتى ولم يسمع أجد الذى تقطب حبيه وغامت عيابه ببطرة كابية ثم نهض وأشاح عن الفتى وخرج إلى الحديقة!

والحجرة هالة شرفة عريضة تطل على الشاطئ... (نعموها طوال اليوم أن تقترب من البحر... توسلت إلى أبيها... ولكنه اعتذر بأنها إرادة الجد...! حسين عبدالرحمن الرمادى طول عمره «شرابة خرج».. شطارته فقط فى الأعمال ومغامرات السوق.. أما فى الأسرة فهو عضو خامل.. كل السلطات بيد

أبيه . ولم يتردد في إطاعة الأمر الذى أصدره له بأن يطلق أم هالة...

تساقط الدموع فى كفيها المقلوبين على حجرها!
«أعرف أنهم قتلوك يا زين! ولكنهم لن يتزعوك من أحشائي
أت هيا . تنحوصل فى رحمتى تشترق فى مشيمتى أشعر
بك تنزعهم فى جوفى لتزهر!... زهرتك تورق.. تنفتح عن ثمرة..
ثمرتك يا حبيبى المحروم...».

[استتقف هالة ، بعد أسبوعين يوم قرانها لتواحه الجميع وغلى
شرطها . سيكتب الوليد باسم رين العادين أيا كان الزوج].
تساقط الدموع على سور الشرفة . وعباها تنحر فى المدى المنداح
تحت وهج الظهيرة . رائحة اليود وأعشاب السحر تعطرت بعز
الجسد المعشوق...

«سأرف حبك طوال عمرى فى دموعى وقطرات عرقى ورضاب
دمى وابشاق الدم منى جرحاً وحبصاً . سأزف حلك فى أيامى مع
مطلع الشمس وحتى يحسف القمر . سأ . تساقط الدموع على
الرمال...

آثار خطواتنا يا حبيبى تعرفنا... نأثى إلينا.. نقودنا...
تساقط الدموع فى البحر...
سأعفى فجر كل ليلة للحظة الاخفاق . وأجرع الماء المالح
وأدخل السرداب...

تقرير الطبيب الشرعى . الموت باسفكسيا العرق الكدمات

والسحجات والتجمعات الدموية تحت الخلد حدثت قبل العرق!
وكيل النائب العام الذى ذهب «لبيعان» المسرح أعطى أذنه بانتباه
لضابط المباحث.

— هناك أيضاً قطرات دم تبدأ من الساحة الخلفية لقصر الرمادى
وتسير مع آثار سحب حسم على الرمال وتصل إلى شاطئ البحر
خارج أسوار القرية!.. حصلنا على قائمة بالمدعويين فى حفل عيد
الميلاد... سنسأل كل من نظن أنه رأى أو سمع!

شرد الوكيل بعينه إلى سماء بهت ررقنها إلى حد الايضاخ
عند حدودها مع البحر.. وابنسم مغمغماً — أسأله.. لعله يعرف!
— من؟ — البحر!

... ومضى مبتعداً عن الرجل الذى ظل يرمقه بدهشة مستانلاً، هو
يهمس لزميله..
— فلسفة أم خفة دم؟.. «شغلانه» مقرفة!

مساء للطيور الهاجعة

الصراع يفتك برأس رفيق رغم كل ما ابتلمه من أقراص طوال
اليوم، يدور فى أرجاء البيت وهو يسب ويتشاجر متهماً الجميع
بالتآمر على إيقافه مبكراً.

— لم يوقظك أحد . فقط تحتاج للتخلص من آثار السم «الهارى»
الذى طللت تحرقه طوال الليل . راجع سكران مع طلعة الشمس
وتشكو من الصداع؟

وللهجة الأم الصارمة ألحمته فلم يعقب وانزوى فى ركن الشرفة
يصع كمادات الثلج على جسده! (هى الوحيدة التى يعلمو

لنزله... ربما ركب مع «تنفه» من النسوان اللاتي ملأن سراية
الرمادى وكن جميعا على قفا من يشيل!
خلال رموشه التي «بربشها» لمح امتقاع وجهها امتعة اللعة
وسرت عنه فى هذا النهار البغيض فأمعن فى أغاظتها..
= كانت «ميغه»! أسما يرفع الرجل ما ساقه يعرق فى أخخاذ لا
نعد ولا نحصى.
هبت واقفة وهى تلقى بالمجلة التى تشاغلته خلفها..
= لا أظن يوسف متحلا مثلك!..

ضحك حتى كادت رأسه تنفجر من عشرة مطارق هاجمتها فى
نفس اللحظة.. صرخ بعزم ما فيه.. آخ..
بقبل المساء على حجرة البحر . ساكنة معنمة رحل الشفق
وحاء الغسق من أجمة الأشجار الباقية فى حديقة المستشفى
القديمة تنرامى أصوات عشرات من أسراب العصفائر العائدة إلى
أعشاشها زقزقة تبدو كما لو كانت تلك المخلوقات الرفيعة قد
اصيبت بالحنون . من خلال الزحاح رنت راما إلى سماء بدأت
تبدى نجومها وسط زرقة داكنة تتحول حوافها إلى حمرة غسقية
تتحلل تلك الدف من السحابات البيض المتناثرة فى الأعلى .
مازالتم تمشك يد يوسف الغارق فى ساعات نوم حاوزت الأربع
مذ نقلته نساء الأسرة من الحمام إلى الفراش — جاء حسن الغريب
ليطبل عليه . «حمدت ربها كثيرا لأنه لم يشم رائحة الكحول
المختلط بالقى» والذى يملأ «السلطانية».
= نرسل فى طلب الدكتور لمعى؟..

صوتها عليه وعلى أى شحط فى أسرة الجوينى.. طول عمرها
تتمتع بالسطوة والأمر النافذ . وطول عمرهم يطيعون
ويخفون ذبولهم بين سيقانهم ويتلعون عمغماتهم المحتجة قبل
أن نسمعها وإلا كانت واقعة «البعيد» منهم سوداء... حتى
الأب كان فى عز جبروته يحفض النظر أمامها ولا يحاطبها إلا
هامسا (أمرك يانعمت هانم) . وكان رفيق كلما حزنه أمر من
الأمور معها يلحاً لرحاب — رغم أنها الأصغر — ويلقى
بشكاواه أمامها..

= طعنا وقد تعودنا عليه!
= الناس تظنها شامخة بأصل تركى أو شركسى ولا يعرفون
الحقيقة!

تزجره رحاب (إقصر الشر!). تعرف أن السيرة محطورة والحقيقة
غير كاملة أمامنا فكيف تريد أن يعرفها الناس؟)...

. الصداق يفلق عبيده ولكنه يحسن بها وقد جلست بقرية .. «هل
هذا هو العطر الذى يسكر يوسف؟ فيرست تعنى الأول .. الأول
فى أى شىء؟». هجص! الصنف الذى تصعبه البنت «سارة»
أجذع منه ألف مرة . بت الكلب عليها زوج يحسن. كان
المفروض أن تحضر حفلة الأمس .
= لهذه الدرجة كانت «الأردخانة»؟

لم يفتح عينيه (حالا تستأله عن الزبون «دوعرى» يابنت ودعك
من اللف والدوران).

= انفصلنا فى بداية الليلة ولم ألقه حتى الآن. ولا أعرف كيف عاد

— إذا ارتفعت حرارته...

— أين كان طوال الليلة؟ لم يكن قد عاد حين دهمت أنا وسيد المرسي لصلاة الفجر عاجلته باطه قبل أن يفلت لسان راما كان في فرح ناس أكابر في العجمي...

— شيء لله ياسيدي العجمي...

— شيء لله يامرسي يابو العباس...

شيء لله يابأصيري يا صاحب النهج. وأنت ياسيدي ياقوت العرش وأقربك المصطفين حوارك في القاعة تنسربلون بالأخضر والأحمر.. (هل كان يهلوس؟... كلا فهو يحس بيد راما... ويرى النجوم من حلال الصلف الزجاجية المفتوحة ويشعر بنسيمات ليلة صيفية في مداينها. مع رائحة شواء السمك المتصاعدة من محل العدوى.. إذا فما الذي ألقاه في الحب؟ ضحك داخله إذ تخيل أن بعض السيارة سيلتقطونه ويقدمونه للعزیز وامرأة العزیز. وتجري وراءه لتقد قميصه من دبر. أم تراها أحلام السجن؟ أين السبع الجفاف والسبع السمان؟...)

هو يعرف عن يقين أنه يهدى ويريد أن يبق من تلك العفوة الثقيلة ويقاوم الحذر الذي يصعد كأسراب النمل من أصابع قدميه وحتى صحن رأسه.. بدأت حدقته تنموذان الظلمة التي لم تكن ساءه سبب أضواء الشارع المعكسة ورأى في رحام المرئيات المتقاطعة المبقعة (هذه المرة بلا ضدا) عيين مجلاوين ترقان ببسمة حطية «
أجفلت راما حين سمعت الهمة ورأت قطرات تلمع مثلثه من بين الجفون... تقبضت أصابعها على كفه المللة بالعرق.

— تبكي يابوسف — أتراك تحلم؟..

. لم أكن أنا الباكي ياراما. إنه هاني!.. أنت لا تعرفينه!..
صديق زين العابدين. ولكن من هو زين بالنسبة لك؟.. حتى لو حكيت لك ما فعلوه به؟.. هب جالسا كالملدوغ.. وفي نفس اللحظة خبطت راما على صدرها مبسلة مستعيدة من الشيطان وأطلت باطه من الباب..

— ألم يستيقظ بعد؟

مدت يدها لتضئ المصباح وأنه مستنويا في جلسته جفف عرقه بكه.. وراما ما زالت تتلو الآيات المتحيات.

— هيا يابطل.. أستاذ يسأل عنك.. ينتظرك في حجرة السلم!

حجرة السلم هي حجرة الاستقبال. مثل حجرة الرج سميت كل حجرة في البيت باسم حجرة حسن العريب من رمن تسمى «المقعد السحري». وحجرة سيد المرسي القديمة احتلتها باطه بعد رواجه وتعرف «المقعد القبلي». وتركت الأم حازبه مع راما في الحجرة «الكبيرة» التي سميت كذلك منذ تروح المرحوم من الست جازبه.. أما «شغالات» البيت... فلهن حجرة الكرار... والحجرة المسحورة في زاوية السطة العلوية الفاصلة بين «الكات» الثالث والسطوح!...

البكاء على قبر مفتوح

لا يعرف هاني ما الذي دفعه للحضور! ولم يدرك وهو يقود سيارته انها تأخذ طريقها إلى دابر البحر! فقط وجد نفسه يدق على باب يوسف الشفقي ثم يدخلوه في ذلك «الصالون» المفتوح على

السلم... والذي تنوح منه رائحة عطن الأماكن التي لا نستعمل كثيراً مقترنة معطر قديم رخيص وتلك الرائحة النفاذة التي تشير لوجود حياة مستقرة للفتران في المكان . على الحدران صور عائله في أطر خشبية أصانتها الرطوبة الملحية بتأكلات حسيمة تعلقت عيابه بصورة مها لطلل جميل يرتدى قفطان وطاقيّة حمارى ويمتطى صهوة حصان أبيض فى أحضان شيخ خمسينى . ربح بلا سب قاطع أن يكون يوسف وأبوه فى مناسبة ما .
- يوم ختاني !

كان هانى مسمراً أمام الصورة يتأملها حين دخل يوسف ورآه لم يتبادلا الترحيب... ولم يعلق هانى على ذكرى الختان... كان مشغولاً بفكرة أخرى...

- تعرف أنك تشبه لدرحة مقلقة...

"وما الذى يقلق فى أن يشبه الآن أباه؟"

- لا أقصد أباك بالطبع... أنت تشبهه «هو»...

. هو من؟... ماذا يقصد مدرس الجامعة هذا؟.. وما الذى جاء به؟ إن ساعات فرصت عليهما الاقتراب فى حفلة آل الرمادى لا يمكن أن تصنع منهما صديقين...

- أشبه من يادكتور؟

عتمت عينا هانى وانكسر جفاه... وبدأ على وشك البكاء...

- لم أظن لهذا التشابه بالأس! ولكنه أقص مضجعى حين عدت لمزلى وطللت أفكر فيه طوال اليوم . تعرف أنني لم يتمض لى حفص حتى الآن؟ لم أظن أننى يمكن أن أنام إلا بعد أن أراك مرة أخرى

كان يحمق فيه متفسراً بنظرة محمومة.. وياض عينيّه كساة الدم...

- بك شبه من زين كأنك أخوه! توأمه!

ارتعدت أمعاء يوسف ونبض وريد فى صدره.. وأحس للحظة أنه يكره الرجل المائل أمامه كما لم يكره شخصاً من قبل...

وبنبرة عدائية تقطر بروداً سأله عما إذا كان قد جاء خصيصاً لبحقق الشبه بينه وبين زين العابدين؟

بلا دعوة تهالك الآخر على أقرب المقاعد . ورفع أصابع يديه إلى جانبيه رأسه كأنه يمنعها من السقوط...

- لا... هذا أمره عارض.. وربما كان توهماً منى!.. آه لو تعرف ما الذى ألم بى فى تلك الساعات الأخيرة! كما لو كنت شريكاً فى العدر به!.. ولا شك أنك أنت أيضاً تشعر بنفس الذنب.

«أى ذنب أيها المخبول؟...»... لكن هانى يتدفق كهر آتاه الفيضان.. يتحدث فى نبرة أقرب إلى هذيان المحموم.. وعينه المتلهبنة تشرقان بالدمع الذى لا ينفرط . وصوته يتهدح كأنه يصارع سكرات الإغماء...

- كما هناك... ونفّر جنا! أتصدق؟.. نفرحنا.. وربما استمتعتنا بالفرحة سرننا فى موكب الجلادين وهم يسوقون المحكوم إلى المقصلة ويركعونه على ركبتيه.. ويضعون الطع والسلة التى سيتدحرج إليها رأسه.. ويرفعون البطلة لا لا توجد بلطة فهم يستحدمون المقصلة هم يدفعون عنقه داخل الشق المعد لهبوط السكين. وينظرون أولاً للمتفرجين . لنا ونحن تكاد بهلل ونصفق

ونطالبهم بإتمام القتل . لماذا تنظر لى بهذا الذعر ؟ . حقا لم نفعل ذلك ولكننا كدنا نفعله . فعلناه بالإمكان... وبالصمت وبالإحجام عن بحدة الفتى . نعم . لم نحرك إصبعنا لنحميه ! لم تصدر صوتا لتسيه الناس فيسرعوا لنجذته إذا فنحن لا نختلف عن جلاديه.. نحن قتلة.

٥- خطوط الكف..

حين أحشش هاهى بالبكاء تملكته رعدة نفضت جسده وكأنه تلقى
صدمة كهربائية مباغتة..

... لقد حدث كثيراً أن رأى رجالاً تغرورق عيونهم بالدموع. وقد
بدرفونها في غزارة ولكن بلا صوت.. بلا بههة.. مثلما كان من
همه إبراهيم وهو يسير في جنازة أبيه ولم يصدق نبذة صوت على
الأحسن وهو يهمس له ' عملك يبكي حزناً علي أبينا وقلسه يرقص
فرحاً.. دموع التماسيح ! . ربما اختلف الشقيقتان طويلاً على ميراث
الجد وجرحهما الخلاف إلى ساحة المحاكم طوال سنين.. ولكن الدم
أكثر كثافة من الماء وحزن العم بدا صادقا في عيني يوسف أما أن
يجشش رجل بالبكاء ويهتز جسده ويعول كالحریم فلم ير مثلها إلا
مرة واحدة حين ركع حسن الغريب على ركنتيه بجوار السرب
المسحى عليه جسد «هائم» وانفجر في بكاء صارخ رافضاً محتجاً..
وقد أحاط وسطها بذراعيه وراح يأمرها عاضباً بأن ترد عليه وبهرها
بقوة لتنهض بينما تكأكت عليه نسوة البيت كلهن: حازية وباطة وأم
سعد وحليمة زوجة سيد المرسى ورحن يجذبونه بعيداً عن جسد
المتوفاه.. وهو يقاومهن. ويلطمهن ويلطم وجهه وإذ شاركهن

الرجال ومجحوا في إبعاده فرّ على الأرض راكعاً مواصلاً عويله راعياً ذراعيه لأعلى يحار محتججاً. أهى مشيتك أن تأخذها متى ؟ لم وأنت العادل الرحمن ؟ بماذا ستفعلك وأنت الغنى ؟ وحين نهره الشيخ أبو الروس وطلب منه أن يستغفر صاحبه سألستغفره وأتوب إليه ألف مرة.. ولكنى فقط أسأله لم؟..

لم تمر هانم بعد زواجها من حسن لم تكمل العام ولم يدر عليها الحول فقد حملت من أول شهر. وفي أوائل التاسع سقطت من على سلم السطح القال وهى تضع آخر صينية من صواني الصلصة في الشمس.. ولم تفلح الجراحة العاجلة في إنقاذها أو إنقاذ الحين كانت مازالت «عروسة».. وكان حسن فى عفوان انتشائه وتفتح بالرجولة الراوية المرتوية فسترت داخله - وكأنه هو من أجهض حملته - كل الملمات الموعودة وهناعات الشاب النصر وأحلام القطوف الدانية..

وما انستطت بعدها أبداً تقطيع ما بين حاجبيه ولا استطاعت عشر سنوات تالية أن تعمل به فعل النسيان لتعيده إلى أرض التمنى والعشبة من جديد....

ودخلت راما بصينية الشاي ولم تستطع كعادتها أن تلجم لسانها - يا خرابى! الرجل يكى وينوح كالارملة! ماله يا يوسف؟. نهرها ودفعها دفعا للخارج واستدار حائفاً إلي ضيفه - ما تفعله بنفسك تهويل ومبالغة غير مفهومة من يكون بالنسبة إليك في النهاية؟ لا هو ابنك ولا أخيك ولا من بقية أهلك! رفع إليه رفيق عشرين محمولين عامرتين بالدعشة! «كيف؟ لقد

كنا شهوداً... يجب أن نفعل ما يفعله الرجال...».

وماذا يفعل الرجال؟... قلت بلسانك أنا وقفتنا شاهد ولم سحرك حتى عضلة اللسان لطلب الغوث لفنتى المعدور فهل يعد هذا فعل رجال؟..

اصطحبه إلى اللسان الصخرى المجاور لطابية «قاينباى». والليل يغالب أضواء المصابيح الكهرية الممتدة في عمق اللسان...

هند أقدمهما.. كانت دقات موج حفيفة تلل الصحر بقفاعات زيد تلتلشى عند التواءات والفجوات الزلقة التى يكسوها طحلب أخضر (يدو أسود ليلاً.. ولكنها ذاكرة الألوان)

وانحنى ولمسه بأصبعه.. وهو يرمق صاحبه.. «أنؤمن بوحدة الوجود؟»

- سؤال غريب!.. ومع ذلك فليس لى إلمام عميق بالفلسفة! وليننا هذه لا تختمل حوارات عن الوجود والعدم والحق والخير والجمال!..

- أحس أن هذه المياه بها جزء منه! ألم تمتص آخر رشفة من رحيق حياته؟ ألم تتخلل مسامه بالملح واليود لئلا يجلده من التحلل؟ إذا فهو «موجود» فيها بشكل أو بآخر. هذه الحفصة من المياه اسمها زين!

ركع بجواره ونظر فى عينيه.. كان الالتهاق قد انعكس عليه ضوء قادم من بعيد يبدأ متورماً مع أن البؤبؤ كان متسعاً يكاد يملأ الحديقة!.

«أنت من يشبهه ولست أنا» عينك هى عيناه حتى ارتجاف طاقنى الألف وتدللى الشفة السفلى.. بل أنت هو نفسه! «نهض هانى دون أن يعلق واستدار ومضى بخطوات سريعة يريد أن يمر المشى إلى الشارع.. ناداه فلم يلتفت.. هب وجرى خلفه.. لحق به عند

متحف الأحياء المائية «لماذا ذهبت؟...» التفت ورمقه بنظرة كابية
«لن نكون أصدقاء فأنت لا تحبني!» تباطأ ذراعه عودة حاليه
علي غير توقع . وسارا إلي مساحات الضوء عند بداية الكورنيش
= الناس لا يتصادقون يا أستاذ بن يوم وليلة!
= لماذا أتيت بي إلي شاطئ البحر؟..
= لكي أدفعك إلي الفقر في الأعماق وأخلص منك.
بضحكة صاخبة اتبع كلماته الهازئة ولكن الآخر ظل يرمقه بحر
كثيف.. وفي جديّة تامّة أخبره بأنه يود لو فعلها . (عجيب أمر هذا
الرجل.. أحبب الفتى الحنطى إلي هذه الدرحة؟...)

دائرة الرجل الرقيق

.. من أم شامية شقراء . وأب سكندري في دماثة أصول تركية ود
كانه فلقة «قمر».. ظل طفلاً وحيداً تحبه الأب في أصيل حياته ورحل
عنه قبل أن يبلغ العاشرة.. والأم لم تزَلْ بعد في عفتوانها..
لم ينسجم أبداً مع الرجل الذي تزوجته (كان لا بد أن أنزوحه يا
حبيبى حتمية سندركها فيما بعد.. حين تكبر) لم يفهم.. ولم
يقترّب . تباعد عن عريمه الذي بدا له دائماً فظاً خشناً سوقي الطباع
(كيف ارتضت أن تلقى نفسها في أحضان هذا الحيوان؟ كيف تقبلته
خلفاً للرجل النبيل الذي كان؟) .. وحين صفعه الرجل ذات ليلة
فألقاه علي زاوية المائدة البلوطية فشج رأسه قررت الأم أن تستجيب
لرجاء عمته وترسله ليقيم معها في المهجر!..
صبيحة يوم رحيله رفض أن تحتضه! بكت وركعت وتوسلت إليه
ولكنه كان قد فقدّها أعدته عن أحضانها بقرار بارد لم يغمره لها

أبداً.. وفي بيت عمته الخشبي الجميل في «باسادينا» بكاليفورنيا قضى
سنواته العشرين التالية في نهايتها حصل علي الدكتوراه. وفقد
العمة!
أيام متفرقة خلال السنوات الطويلة قضتها الأم مع وحيدها في
اجارات صيفية قصيرة زارت فيها بيت العمّة بأمریکا. وفي كل مرة
كانت تراقب تطوّر ذلك الفتى الرقيق الحساس من مرحلة المراهقة..
إلي الریمان إلي العنقوان! (أى عنقوان؟) وهو كيان لا يمت لأى
مظهر من مظاهر الخشونة أو العنف.. ولا حتى فوران الرجال تبدي
عليه بأى ملمح.. قالت لها العمّة: هانى هو أرق من رأيت من رجال
في عمرى.. له حياء العذارى وهدهد بنت البنوت..
لكنها رحلت.. والأم طلقت وألحت على وحيدها أن يعود..
أصبحت وحيدة يا بنى.. وأحتاج لدفع وحودك في خريفى!
نعال.. وعدنى خالك بأن يعبوك في الجامعة! .. ماذا بقى لك في
الغربة؟!.. لم يبق له شيء!
لا أعرف لماذا كرهونى جميعاً.. منذ اليوم الأول! كما لو كنت قد
أطلقت حولي تياراً ممططيسياً يحتذب الكراهية .. من هم؟ .. كل
زملائي الأعزاء في سلك التدريس! أما الطلبة.. فلا التفوا حولي
جميعاً. لعله كان السبب؟ نظن ذلك؟ ربما.. حيرنى الأمر طويلاً
وفكرت جديداً في ترك الجامعة لولاء نعم! هو زين العابدين...
وحده قد اخترق ستار العداء المسدل حولي.. وصار صديقي!..
وتهدح صوته! صمت واتخذ سمناً يشي بأنه لن يواصل الحديث في
الأمر...

من خلفه جاءت الأم - مازالت شقرتها باقية رغم السن والشيب
وبقع النمش التي كست ظاهرها - تثمت بكلمات عن الحر
وجلس بجواره...

— نانسى طلبتك.. تقول أن المحمول كان مغلقا .

— لم أحمله معي أصلا . أمى أنا...

— كلم نانسى!...

— أريد أن أعترف لك بأمر...

— كلم نانسى!

[نانسى هى الأمل.. الوحيدة التى تستطيع أن تقنعه بالزواج فهو
يحبها.. نعم يا أمى أحبها... ولكن..] لم يرد مرة عن الكلمة..
لكن!

اعتمد برأسه بين كفيه وبكى بحرقه... اعتادت هى على بكائه! هزت
رأسها.. واكتفت بلمس كتفه..

وهمست: ما بك؟

— أنا قاتل يا أمى!

دائرة منتصف الليل

ثار رفيق وانفجر به صائحا كنور يخور «نعم وحياة أهلك؟.. اسمع يا
يوسف يابن الشفقى رأسي يئنك بها صداد ملعون من صباحية
رينا.. ومراجى فى الدرك الأسفل... يعنى لا تقصنى تخاريف
جنانك . أى جريمة تلك التى رأيتها؟ انه السكر الذى تعتك يا روح
الحاجة حازية... تهيزات عرضت لك!... وحتى لو كان ما تحكيه
حقيقيا. فما لك انت به؟ تريد أن تذهب للشرطة وتقول لهم انك

جرتهمما الحكاية طولا إلى لسان السلسلة ثم أحسا بالتمتع
الكوريش مزدحم. والرطوبة بللت الخلد والملابس... والبحر يزأر
ولا أحد يصمت فظنين السيارات والناس وصرخات الموسيقى
المصاحبة لأغاني منبثة من مساحلات في كل مكان تجعل هدير
الامواج بعيدا منفيا...
— أين تسكن؟..

— لنا فيلا في لوران. تعالى معي. سأعرفك بأمرى ونقضى السهرة
معاً. في صوته تارجحت ذبذبة رجاء.. وفي عينيه نظرة خوف (مم
يخشى الرجل الرقيق؟...)

اعتذر لأن رغبة ملحة كانت تقوده إلى جليم..

أما هانى فقد عبر الطريق.. وقرر أن يسير بقية المسافة إلى البيت!
الشرفة الكبيرة مضاءة بالقنديل الأخضر القديم.. القنديل عمره من
عمر هانى... وحين مات

الأب آمن بأن روحه سكنت داخل الكريستال الأخضر.. فكان كلما
تساجر مع الرجل الجديد أو اخفقه صوت ضحكات الأم المنسرية من
حجرة النوم يخرج إلى الشرفة ويضئ القنديل ويتحدث مع الألب
حتى في ليالى الشتاء الباردة. «كأت نوة الكرم.. والأمطار تغسل
أرض الشرفة وتكوم هو على أريكة البامبو ملتنا ببطانية لم تحمه ولا
القنديل حماء حين غلبه النوم ولم تكتشف الأم ما حدث إلا في
الصباح! حمى يذكرها حتى الآن ويذكر خيالها . مياه الأمطار
تندفق تحت قدميه (القنديل يتأرجح فى سقف الحجرة ووجوه كثيرة
تظهر ثم تختفى...)

رأيت شاباً يحرق البحر ويفرقه أفراد العصاة؟ مجنون أنت أم عن لك أن تتسلى على رفيق الجوى في يوم نحسه؟..»

— ليست عصابة يابن الجوى . انه الشاب ابن الرمادى ذو الأنف المعوج وتماحة آدم رأيت لحظة إطفاء شموع العيد وقالوا انه خطيب البنت.. كان معه مجموعة من الحراس لابسى الزى الخاص. وجروا زين بعد أن طاردوه.. وقتلوه إعرافا فى البحر أم عيني وعيني الدكتور هانى الكردي..

استرخى رفيق فى جلسته واجماً كمن سقط على رأسه حجر وراح يحملق فى صديقه القديم وهو يسمنى لو كان ما يقوله نوعاً من المراح وحين رأى عبسته وبريق الغضب فى عينه أحس بالمصيبة وخرج صوته بتحشج كمن يحتضر.. أملك وأم دكتور هانى هذا أو أياً كان اسمه. ثم تناول قرصاً من أقراص الحموضة المواردة ووضعها فى كوب ماء.. وجرعه دفعة واحدة..

— مصيبة أسود من ليلة كحل!..

أطلت رحاب هجر الصالة فناداها مستحيراً ..

— تعالى لنسعى ابن الشفقى فى آخر اليوم غنائى!

أما لهذا المرض من نهاية؟. حتى الآن لارالت الحسرة تتحرك فى تلايف أمعائك؟. كلما رنت أو خطرت وحملت النسمة عطرها يقلب حالك؟. عيناها فى طرفنها تحوك بظل ابتسامة تجعد غمازتين على جانبي الفم تعيد فتح الكتاب القديم وطريقتهما فى صم شفتهما السفلى إلى العليا حين تعتمد أن تخفى ابتسامة يا الله! (كأننا يا بدر لا رحننا ولا جينا..)

انتهى رفيق من تلخيص «وكسة» يوسف كما سماها ، وراح يتراقص رغم صداعه...

— شوفي الخيبة يا أختى... شوفي الخيبة يا أختى...

— أى خيبة يا رفيق؟ يوسف يفكر صح!..

— نعم يا روح سنك؟ انت أيضاً؟ أى صح فى هذا الحنون؟ نحن ما صدقنا أن يعفو عنه عبدالرحمن الرمادى ويطلب من رئيس مجلس ادارة الجريدة أسامى بالهاتف أن يعيد المحروس لعمله.. ويحىء حضرته اليوم ليقول أنه يريد ابلاغ الشرطة بجريمة قتل ارتكبها جاسر الرمادى وهو شاهد عليها؟..

بهذوء ملأ صدره مع إحساس بالخذر الوديع . غمغم بعد أن بسمل «ومن يكتم الشهادة فهو آثم قلبه»..

— أهلاً بحضرة صاحب الفضيلة الشيخ يوسف الشفقى! قسماً بالله لو لم تذب إلى رشدك لقطعت صلتى بك إلى يوم الدين..

قالها وخرج لا يلقى علي شىء..! وبقيت رحاب...

بقيت رحاب ترنو عبر نافذة إليه . فى أفق الليل أمر تطارده وتريد استحضاره ليقطع حرج الصمت.. (هل تقطع السنوات خيوط الوصل؟. وتبقى الذكريات وحدها ترقص على الخافة؟. ما كما لصمت لحظة حتى فى لقاءات الرمال على شواطئ العرب الخالية ولطالما بنينا القصور ونحدينا زحف أمواه المند دون أن يكف من الكلام... والأنامل تبحث عن لحظات التلاصق... والشفاء تحطف لئمة الحد... وتعرقل الرمال جرى الهرب... تقوض السيقان وتنكفى.. يتمرغ... أنذكر).

— أذكر عينيك شاخصتين مع أنفاسك المبهورة تحت ثقل صدري
الجاثم.. وأنت تشيرين برموشك لدفة من سحاب صيفي يعبر «ما
الذي تشبهه هذه السحابة في عيبك؟ أنا أراها قطرة رومي ترفع يدها
لتنخمش وجه من يعاكسها!.. وأنت؟.. أجبتك بأول قبلة حقيقية
فجأذك . لازلت أذكرها كما لو كانت من دقائق... الطعم وملمس
شفتيك. تصليهما في البداية. ثم الاستجابة.. فالتوتر
فالانسحاب.. فالغضب..

صمت فأكملت منسمة: فالصفعة!

ران علي البيت في لحظة صمت مفاحي.. وابتردت نسمة نسكمت
لحظة ثم نشطت وكان لوقع دقائق منتصف الليل في ساعة حجرة
المعيشة فخامة في غير محلها.. فكر للحظة في أن يسألها: هل لو قبلها
الآن ستصفعه كما فعلت في المرة الأولى؟ ولكنه أحس بسخف
السؤال .. فقد قبلها عشرات المرات.. لم يحس الآن بأنه يريد أن
يفعلها لأول مرة؟..

— أين طفلك؟

— أخذته أمي إلي ملاهي المعمورة!

... لحظة.. وصمت... وسؤال آخر.. «أين اختفى رفيق؟» . سأبحث
عنه!

... أنراها وجدت في السؤال فرصة للهرب؟.. كلا.. فستعود!
رحاب دائماً تعود.. ليلة أن سافرت مع الآخر كنت له رسالة.
وعدته بأن يوما ستعود وستصل فيه ما انقطع.. ساعتها رأت «باطة»
دموعه تتساقط علي الخطاب المفتوح، أحدثه في حضنها وبدون أن

تعرف أو تسأل عن أسباب بكث معه «بدري علي كسرة القلب يا
يوسف! صام بعدها عن الأكل حتى هلمت عليه الحاجة جنازية
وأقسمت انها «عين» والعين تفلق الحجر يا ولاد.. «نعمل لك زار يا
يوسف؟»
... هادت ورحاب..

— تصور نام؟ (ينام رفيق وهو يعلم انك وأخته وحدكما في
البيت؟... ليس لهذه الدرجة.. هو قد يخلو الخو ساعة للحديث حميم
ولكن أكثر من هذا؟.. استحالة...)

— حدثيني عن حياتك في الغربة!..

مرت سحابة على وجهها ودكنت نظرة في عينيها وهمست: لا
تذكرني بما أكره...

بعد لحظة اغتنصت ابتسامة.. «ولكني تعلمت قراءة الكف هناك من
جاره هندية... تريد أن أقرأ لك كفك؟»

هل كانت إشارة مرور خضراء؟ أم هو مجرد كسر لخرج
الانتظار؟.. جف حلقه وتلججت أطرافه وأحس بالأعراض القديمة ..
مد لها كفه تلمستها . واحتوتها... ارجحت نبضتان في شريانين
متقابلين... أحس بأصابعها النحيلة أبرد من صقيع أطرافه..

— يداك باردتان...

همست: أعلم!.. أضاف: إذا فقلبك دافئ!

لم تجب.. نكست رأسها وراحت تحملق في راحته المفردة

— خط الحياة عندك طويل . ستعمر إلي ما بعد الثمانين.. أما خط.

ولم يسمع! كان قد أعطى أدنيه لصوتها القديم.. تغنى له ذات

صيف في حدائق قصر المستزه.. «مش حاتنارل عك أبدا مهما يكون..» ولكنك فعلت يا رحاب

... خضعت! أعلم أن الزمن الذي تجبر فيه الست علي الزواج رغم ارادتها لم يعد حاضرا . واعلم أنك أنت بالذات لا يمكن قسرك علي شيء. واعلم أيضا أن رغبتك في التضحية من أجل أبيك بالرواح من الرجل الذي أنقذه ليست هي كل الحقيقة. وأذكر ليلة تشاجرت مع رفيق واتهمته بأنه لم يساعدك في الافلات من الزبحة الصفقة.

وحين قسوت عليه في الهجوم بادرني بالجملة التي ألقمتني كل الأحجار: رحاب حسبتها بالعقل يا يوسف.

يا شفقى... ليست المسألة كلها إكراه كما تتصور! أفق لنفسك يا حبيبي!

.. أعلم هذا كله يا رحاب ولكني أعفر لك . وسأطل أعفر لك.. غفراني بلا ضفاف.. فلا تعديه ضعفاً...

أفاق علي صوتها تناديه: لست ها ! . احتجاجها هو الذي حمل له الدعوة.. عياها تلتعمان بنفس الطريقة التي كانت تلهب حواسه — تذكرين «كاينة» عمتك بشاطئ عابدة.. وتلك الطهييرة في خريف أكتوبر؟..

أومأت أن نعم! وكيف تنسى؟ «الشاطئ قد اقفرو.. وشمس واهمة تتأرجح خلف سحبيات تبعثرها ريع خريفية يمتزح فيها دفء باق من صيف راحل بلسعة برد من تباشير الفصل القادم..! وكانت قد أسرت له في الهانف بأنها تحابلت وسرقت مفتاح الكاينة و«الكاربيه»!.. ارتدت يومها بنطلون جينز «استريتش» وأطلقت

حدائلها حرة . وحين أمسك بحصلة ولها حول أصابعه أدارت له رأسها وبادرت بتقليله . لأول مرة تقلبه هي وتقوده بشفتيها إلي عمق لحظة يتمدد فيها السحر لساعات ! من مدياع قريب . كان عبدالوهاب يصطحب بأعية قديمة كم نينا من حصاها أربعا . واتشيا فمحونا الأربعا . وحدونا الشمس في مغربها.. طلبنا هناك حتى أطلق المساء..

آه يا رحاب.. أنذكرين كم مرة كتبنا إسمينا على الرمال وسفت عليها رياح المساء?... فلم تحفظ الريح ولا الرمل وعي؟.

هل تحدث وحده أما تحدثنا معا؟ اشتبكت أصابع اليدين لدرجة الألم.. وأعمضت عينيها وعقدت ما بين حاجبيها وارسم على وجهها ألم مخصب ببقايا خجل لم تفقده أبداً.. ومن بين جفنين مطبقين وعمر أهدابها السوداء فرت دمعتان.. انحدرتا على خديها المضرجين وافترت شفتيها عن استغاثة خرساء.

كم افتقدتك يا يوسف! كم هاجتني ذكرياتي معك حتى امرضتني كم كنت هناك أسهر من أحل أن أدخل إليك وأناجيك مع انتصاف الليل كما كنا نفعل في الاسكندرية...

«في الثانية عشرة تماما سيخنلى كل منا بنفسه منعزلا عن كل من حوله ليفكر في الآخر . بمدامسة التركيز يا حبيبتى سيمكنا أن نتخاطر » أتعلم يا يوسف اننى اتصلت بك روحياً أكثر من مرة؟ واستطعت أن التيق حتى بالجسد مرتين؟...

يعتصر يوسف صدرها اللاهث في أحضانه! ترجوه أن يترفق معظماها! يمسك رأسها بين كفيه... تقفز فجأة بافرة.. «أنت

وحش». أصابعها تمسح شفتها الدامية

. يقف رفيق في مدخل الأرض عابساً..

— أبوك قد يحضر الليلة ليناقل معك حياتك المحطمة ولا يجب أن يرى المحروس هنا . ولابد في حضرك.. وانت يا باشا... خالتي جازية في انتظارك!

ألقى بنفسه في مركبة الترام.. وأستد رأسه لزجاج النافذة . كان جبينه يتفقد بعرق بارد وشفته مخدرتين.. والليل قد أمعن بعد المنتصف!

نهار مفعم بالأشياء الطيبة

«رمانك طاب يا ليلي.. رمانك طاب حاجة هائلة» صحت أذنك قبل أن يفتح عينه .. الصفيير البعيد ليخت بحرى قريب.. وصوت الطلبة.. وتصفيق نسوة فرحات. وضحكات تقطعها صرخة وتدفع إليه راما. منكوشة الشعر محمرة العينين..

— هل قلت لكم يا عالم اننى أريد أن «اتجنز»...؟ دعونى لخالى وإلا ومقام سيدى المرسى لألقين بنفسى في المالح وأجيب لكم مصيبة تهرع ناطة داخله خلفها: قلقت منام أخوك يا مقصوفة الرقبة! ماله ربح الطحلاوى؟ جدع ابن حلال وكسب ووحدانى.. لا أم ولا أخت... يعنى لى تكون لك حماة تنقص عيشتك!.. ثم ان الأمر قد تقرر ولا فائدة من عنادك حسن العريب قرأ الفاتحة مع الولد!

— الحفنى يا يوسف! تريد أن تتركنى لأذهب إلى الموت بقدمى؟ قالت له أمه الحاجة جازية ان أهل الدائرة بدأوا يلوكون مسيرة البنت وحكايتها مع «زكى» صبي القران!.. وانها متفقة مع حسن في الرأى (البنت لابد من الاسراع بسترها..

. رفقته حسن العريب بطرة ساخرة.. (نعم يا أحلى؟.. وما هو العيب في أن أرحب بالجوع وأقرأ معه فاتحة؟)

. انت حقانى يا حسن.. ولابد أن يكون لنا رأى! لسا قطيعك الذى ورثته عن الحاج خليل الشفقى وتقوده حيثما تريد!

— تسمع أخيك يا سيد مرسى؟
سيد المرسى ليس محايداً فامراته حلمية هي بنت عم رجب الطحلاوى! فضلاً عن ان رمانه قد تعدت الثامنة والعشرين وأصبحت علي شفا حفرة من البوار «والبنت يا يوسف يا خويا ليست عاقلة.. هي مطبورة كما نعرف جميعا . وحسن العريب في مقام أبيها يعرف مصلحتها ولا يهاودها...»
ويضيف حسن انه استشار علي الأحسن وحصل علي موافقته بدوره..

— أخذت رأى الجميع إلا أنا يا حسن؟
— وماذا فيها يا ابن بطن أمى؟ . رأيت لن يخرج عن احتمالين..
توافق مثلاً نحن الثلاثة . أو ترفض... وإذا رفضت فنحن أغلبية..
ونحيا الديمقراطية!
ولولا أن رن جرس التليفون لخطنها لكان له مع المرسى شأن! ناوله حسن السماعة
— يقول المتحدث أنه مدير تحرير الصحيفة!
بلهفة تلقى يوسف خبر حفظ التحقيق معه واعادته لعمله بعد انتهاء «الاجازة المفتوحة»
صقق حسن بيديه طرباً «أرأيت! فاك العريس!»

قرر أن يعود إلى المنزل فيبعد حقيقته ويسافر في نفس اليوم إلى القاهرة . وسيعفيه اضطرابه من التورط في مشكلة «راما» . عليه فقط أن يطيب خاطرها ويستميلها حتي يعيد حس الغريب النظر في المسألة.. «وسيكون كله خيرا بإذن الله!»

.. اوعى تكون بتضحك على يا يوسف! «عيب يا راما. ومتى فعلتها؟»

.. وقل أن يغلق حقيقته.. نادته باطة...

— الأستاذ هاني حضر وأدخلناه الصالون!

... نهار مش فايت! . والأمر لابد أن يواجه بحزم فالسيد هاني سيأخذ على المطرح وتصبح حكايته حكاية...

وجده مختلفا تماما عن ليلة الأس...! وجهه الشاحب معقودا علي تعبير عابس مصمم . وشفتاه الرقيقتان مزمومتان بحدة حتي لقد عجب يوسف كيف يتكلم دون أن يفتحهما. يده فقط ظلنا تشابكان الأصابع العشرة..

— هل تشاركني في قرار اتخذه؟..

— أي قرار يا دكتور؟.

.. سادس وأسلم نفسي للشرطة يا سيد يوسف. وسأخيرهم بأنا

— أنا وأنت لا نستطيع كتمان الشهادة.. وأنا رأينا مصرع زين العابدين ورأينا القنلة!

٦- الدوائر المغلقة

دائرة المكان الموحش

رغم رفته ورفاهة حسه وهشاشته البادية إلا انه لاح ساعتها كمنحوتة اغريقية لإله المناد الغاضب وبدا أيضا قابلا للانتهاك الى حد الصرب.. ادرك يوسف لحظتها ما يحق له على الرجل . فيه ما يعربك بالقسوة ويستثير ما تخفيه من سادية.

- امهلني يا دكتور حتى أدرك مصالحي في القاهرة ثم اعود اليك..
خذها فرصة تعيد فيها التفكير.. فكر على هذا النحو المنطقي.. لقد شاهدنا شيئا. ربما كان شروعا في قتل.. وربما تم القتل بعد ذهابنا . حسن.. إذا فتحنا في أسوأ الفروض مجرد شاهدين. اذا استدعينا للشهادة نشهد وسقول ما رأيناه على شاطئ البحر في ظلمة الليل.. افراد بطاردون شحوصا وينزلونه البحر.. ربما كان مزاحا.. أو لم يكن.. فالرؤية غير قاطعة ولا تستطيع ان تقسم عليها.. حسن.. لن نتبرع باستنتاج يفسر ما رأيناه، ولن نتهم اشخاصا بعينهم. حسن المهم أولا ان تستدعينا جهات التحقيق، اما التطوع بالشهادة فهو تصرف أخرق.

لم يجب هاني ولم يطرف بعينه، ظل ناظرا اليه والتماعات هازنة تترك في عينيه بشكل جارح.

- لم تنظر لى هكذا؟ وبم صمتك؟ لعلك لم تقتنع بوجهة نظرى
- أمقتنع بها أنت؟

فاجأه السؤال فأحسقه . ما هذه السفسطة؟ كيف تكون وجهة نظرى
ولا اقتنع بها؟ . ومن تكون بسلامتك حتى اخاضك فأناور معك
والثف حول معانى الكلمات؟ .. يخيلى الى أنك مهووس الى حد ما .
نعم . لست فى حالة طبيعية . ربما تأثرت بشدة لاحداث تلك
الليلة؟ .. انصحك بالاخلاد الى الراحة والنوم طويلا . مالهالات
الداكة تحت عيينيك تشير الى ارق يهكك . وسأكتب لك اسم
اقراص منومة حديثة جربتها . ستعطيك جرعة نوم طويلة تصحو منها
صافى الذهن قادرا على التفكير بشكل افصل .

لماذا بدت له ابنسامة هانى ساعتها جارية مهية؟ .. اى اتهام حملته؟
ومادا اقترف حتى يتهم؟ . الغضب يتصاعد ولا يهدأ مع كل خطوة
فى طريقه لغرفته ليحضر اسم الاقراص المنومة . وفى طريق العودة
الى ضيفه كان ضيقه به قد بلغ الذروة وقرر مع اخر خطوة ان يطرده ..
ولكن .. كانت المحجرة خالية .. وهانى غير موجود . جن جنونه ..
دون ان يعرف السبب . وراح وهو يقفز درجات السلم يعنف نفسه .
لقد كان يوشك ان يطرده فماذا احسقه فى انصرافه؟ اكان يريد ان
يستمتع بطرده؟ كلا . اغرب ما فى الامر ان مشاعره تنعير من النقيض
الى النقيض تبعا لوجود هانى معه او غيابيه .. أمر يورث الحزن . فهذا
رحل لم يعرفه إلا منذ ساعات .. يومين تقريبا فكيف استطاع ان
يحتله بهذا الحضور الكثيف للدرجة ان يجعله يجرى بطول داير النحر
ثم شارع الترام امام حلقة الانفوشى حتى ينقطع نفسه وتخور ساقاه

دافع قهرى ملح سيطر عليه وتملكه ليلبحث عن هاتفه أو مرله ..
اسك بالدليل فى محل المانيفاتورة بشارع العطارين وراح يبحث فى
حرف الهاء ..

رفقه سيد المرسى من بين اجمانه الناعسة وهو يتمتم : عمن تبحث يا
يوسف؟

واجاب حسن ساخرا : يبحث عن ابرة فى كومة قش ..

هاهو .. هانى محمود الكردي هانى محمود الكرداوى اهو
كردي أم كرداوى؟ لا بأس .. سيحاول مع الاثنين ..

هتف بحسن يسأله قبل ان يخرج . أنساخر غدا من غير شر؟

وصل الى الفيلا واطمأن حين تعرف على سيارة هانى راضية فى
مر جانبي مجاور لباب حديقة صغيرة تحيط بمقدمة الفيلا فى شبه
قوس .. افرع الباسمين والللاب تتدلى على طيف الشرقة الكبيرة
حيث طهر جزء من سيدة المنزل الجالسة تقرا بحوار السور قاده
الخادم المسن الى صالون متسع فى صالة الدور الاول . وفى انتظار
هانى تجرع مرارة الندم . ما الذى أتى به؟ بأى حلة سينعمل؟ لكن
الرجل الرقيق هش له نرحاب حار ولملت عيناه بفرحة حقيقية دون
أن يظهر أى دهشة .

- جئت فى وقتك تماما لتصحبنى فى زيارة لأناس سوف تحبهم!

. وطوال الطريق رفض مراوغا ان يخبره عن هؤلاء الناس . بدا فقط
سعيدا كطفل يلعب لعبة الاستحمام يكاد يصفق طربا وهو يلوح
امارات الفضول فى عيني يوسف ويتسمع نبرة الإلحاح فى صوته
أما يوسف فقد تضاعف توتره . كان اصلا قد عانى مشاعر سلبية تجاه

متزل صاحبه رغم الاتساع والفضامة وكل مطاهر الثراء والذوق السليم كان مكانا «موحشا» باردا.. يقبع في مساحة اللامبالاة التي تميز سكoon الأضرحة. قبلها كان يصيق باندفاعه غير المبرر وإلحاحه في البحث عن عوان هاني ورغسته المحرقة في العثور عليه.. ثم ضايقه أكثر ان يتجاهل الآخر ويتعامل معه كأن لم يكن بينهما هذا اللقاء القريب.. فقرر ان يعاقبه بالمثل ولا يسأله عن سبب اختفائه المفاجئ من حجرة الصالون بمزل داير البحر ويركن عيه راح يراقبه اثناء انهماكه في القيادة. لماذا يبدو سعيدا متشيا الى هذا الحد؟ ربما كان يصحبه للتعرف على فتاته؟ ولم لا. رجل في مثل ملاحظته وثرانه وموقعه الاجتماعي كأستاذ بالجامعة لابد وأن يكون محط انظار الفتيات وموضوعا لأحلامهن..

عبرت السيارة منطقة الرمل عرصا واشرفت غريال وباكوس ومن شارع عريض مشعت المعالم بدا كسوق شعبي يزخر بالشر والبدايات واصوات الاغاني السوقية المبهمة من عشرات المسجلات في محلات «العصير» والمقاهي الكثيرة وفوق عربات عرض البضائع العشوائية. من هذا الشارع انقطعت خيوط ارتباطه بالصفة الأخرى. هناك حول الفيلا الساردة والنسايات الموحشة هاني بالذات بدا محتلفا لدرجة اذهلت يوسف وجعلته يستعيد صورة الرواية الكلاسيكية عن دكتور حيكل ومستر هايد دق من الحبيوية يسرى في اعطاف الرجل الذي لم يعد رقيقا بمجرد ان دلفت سيارته لقلب الحى الفقير واتخذ وجهه سمنا مغايرا لما كان عليه قبلا بدرجة محيرة حتى لقد تساءل يوسف.. هل كان الوجه الاول قناعا أم ان ما

يراه الآن هو القناع؟.. حتى نظرته الشاردة الحاملة لم تعد ولا عاد صوته رخيما هامسا.. برقت العينان بوميض الظهيرة المتوهجة.. وعلت نرة في الصوت تكاد تنم عن خشونة الثقة والاعتقاد.. فهل هو نفس الرجل؟

نصف دائرة الرجل الآخر

من الشارع العريض تدخل السيارة الى شارع اضيق واقل ازدحاما ويحтар هاني مكانا محاورا لورشة اصلاح سيارات يلقي على صاحبها السلام فيبادل حوارا وديا يشي بألفة ومعرفة قديمة.. ويترك السيارة في حماه.

يصطحب يوسف متأطا ذراعاه، وقد تخلى عن نزقه وفرحته بشقاوة ومتمعة الاستحفاء. تحول بريق الفرش باللعة الى وميض يستعيد الحزن الداكن، كلمة لؤلؤ اسود بتدحرج في طوق فضى من حارة الى حارة في جو مفعم بروائح الفلاف المعجوبة بماء السلاطة البلدى، والطرشى وشواء السمك وبحار الزيت الذى يلقى الساذجمان والفلفل.. وبحوار مخبئ صغير للعيش البلدى.. منزل صغير من طابقين يختلف عن البيوت المحاورة في حدائنه وظافة نسبية تعطيه حضورا خاصا. اسرعت امرأة تضع فرشاً تباع عليه ام الحلول بإفراح الطريق امامهما للباب وبهجة من اعتاد رؤية هاني تهتف تفضلوا.. أهلا وسهلا.

صورة الفتى الخنطى بعينه النجلاوين واتسامته الساحرة تصدر حائط الصالون متشعبة بشريط اسود. السواد يسربل احميع الاب والام والاخت والاخ الصى. ولم يكن سواد الأردية فقط. فى

حدقات السهد التي قرحتها سخوة الدمع النارف ابدا لا يعحف ولا ينصب له معين .. فى التعبير الملتوى بقسمات الوجوه يرسم عليها ذلك الحرر الغاضب الرافض للعزاءات الرخيصة والمشاركات المجابية فى الشفاه المزمومة المطبقة فى صيام غير معلن . فى ترنيمة التعديد الموروثة تنتقل بين صدور اربعة ولا يسميها الآخرون.

راح الامير . لابس حرير خطمه الملاك .. زفه لقضاه، قال الطبيب .. جرح الحبيب .. يكونه بكاك .. والنوح دواه.

روح زين تأتى كل مغرب وتقف فى شباك ححرته طير ابيض لا اسم له ولا صنف ولا جنس.

نطقها الاب، وامنت الام، وكست الاحت رأسها لكى لا يرى الرجلان دموعها والاخ الصبى يقول «آه يا حويا» ويعاود الاب الكلام

- روح زين تعاتبنى يا دكتور هانى تقول لست ابى لو تركت دمي هذرا.

- لن نترك دم زين ليهدر يا عم امام. تعاهدنا انا والاسناذ يوسف الشففى الا نترك قضية ابنك حتى يلقى القنلة جزاءهم.

ترعجب عضلة فى خد الرجل المكلوم. وينطلع الى يوسف بانتسامة استطلاع متوسل:

- تعرف زين يا ولدى؟

رايته ليلة بكاملها ايها الرجل الطيب.. حطف بصرى كما فعل مع الجميع .. وكأنه تلك اليدوسا الاغريقية التى تحيل كل من يحرق على النظر اليها حجرا . عاشرته عمرا فى ساعات.. ورأيت العرافة تقرأ كفه وتبكيه قبل ان يحم قضاؤه . وألححت بالفصل الاخير من قصة

جبه النعسة ثم شهدت صفحة كتابه الصغير تميزق وتلقى لوحوش البحر الليلية وتتحول المزق الى زهور من بنفسج تنت فى مسام الجسد.. بينما تتسلل داخلنا نحن الاحياء الحونة فروع الاشواك المسنونة تنشب مخابها الابرية داخل ارواحنا وتمرق فى دماثنا كحرقومة علة لا شفاء منها لقد مرصا بابك ايها الشيخ الحرين الام نقص -ربما للمرة الالف- قصة فتاها منذ ان خرج من رحمها والى ان ودعها مساء يوم الرحيل.

- امسك بكلتا يدي وقبلهما واغرورقت عيناه بالدموع، وقال لى ادعى لى يا أمى لأعود منصورا.. ضحكت وسأته . أمى الحرب يا زين؟ سقطت دمعة على يدي أوحى لى قلبى فحضنته . حضته بكل ما فى هلع الام من قوة حتى اذنته فى دمي المتدفق فى صرعى ومازال صدرى يحن الى الآن وينزف لبن السرسوب.

دموع الام تسقط فى اعماقه كالجمرات.. يحن الى صدر الحاجة حارية ايدكر حقا شهور الرضاع والاشباع ام هو احسب الى الكوص والتمرس داخل الرحم؟ .. تترسم له جازية وهى تمسح على شعره وتهز وركها المثلث تحت رأسه هو هو . منه نام وبدبح لك جوزين حمام لما قالوا دا ولد. اتشد ضهرى واستند سألوا مين عينه كحلا.. قلت لهم يوسف الاحلى.

نواصل ام زين حديثها وقد احتضنت صبيها الاخر واب يعمغم بآيات أو ادعية لا تسمع وفى البلكوة التى يفتح عليها شباك الصالون العريض. يقف هانى مع زيب الاخت مكسة الرأس تنصت ويتدفق هو فى حديث لا ينتهى.

- ما حكايتك مع الاخت يا دكتور؟
لم يجبه وسأله عن نوابه.

لا مفر من الذهاب الى القاهرة أولا تستطيع ان تتقدم انت أولا
الى النيابة .. وبعدها سيرسلون فى طلبى .. وسأحكى ما رأيت.
- شيء طيب ان تتخلى عن حذرك ومراوغاتك وتتصبر للمصف
الطيب داخلك..

- وما بال نصفى الآخر؟

- لكل منا نصفه الآخر يا صاحبى . نصف يتعامل به مع الضرورة
واكل العيش ومراعاة الظروف والاضطرار الى المساومة واعضاء
الطرف..

- لن ادخل معك فى جدل حول البديهييات ولكنى سأسألك مرة
اخرى.. ما حكايتك مع الاخت يا دكتور؟
حاصر السؤال هانى . فسررد طويلا وكأنه يستجمع تلك الاثنيات
التي تتوزعه..

. ماذا يريد هذا الصحافى ان يعرف؟ وهل يدرك مثله حقيقة زينب.
وقصبة ريس؟ ألم ير ان لها نفس اللون الخطي . سمرة الحمرة فى
النور المذاب ولها نفس العينين الأسرتين المحمل طرفهما بالخور
القاتل الذى اماح دم أبى الطيب؟ ان من احب زين لا مفر له من ان
يعشق زينب!

- أتعرف ماذا يعنى ان تنقذه هذه الاسرة يا يوسف؟ اب يغسل الكلى
ثلاث مرات فى الاسبوع وام اقعدها التهاب المفاصل وشقيق فى
الاعدادية.. يعنى ان المعاش الذى مستحصل عليه من الجامعة

والمرتب المضحك الذى تنقاضاه رينب من عملها بشركة الكهرباء.
لن يكفى لنصف شهر.
- وأنت تريد ان تساعد؟

هؤلاء الناس يحملون كبرياءهم كالصليب . ربما لأهم لا يملكون
سواه.. ولن يقبلوا صدقة من غير ذى صفة . ولا مفر من أن تكون لى
هذه الصفة.. نعم وسأفعل... دائرة

المدار خط وهمي

التكييف البارد داخل القطار التوربيني يحمل من لحظة الزول الى
رصيف محطة باب الحديد محنة حقيقية فأن تلقى بنفسك فى فوهة
فرن بعد ساعتين من خدر البرودة وتعتصر لتزف كل مسامك
بالعرق.. فلا بد ان يساورك هذا النوع من الاكتئاب الذى يلتقى بظلم
كثيف على ليلتك وما يتبعها من ايام..

وكانت الفكرة التي تساوره فى كل مرة ان صيف القاهرة اللاهب قد
صار بعضا من سماتها حتى يصعب تصورها بدونها . يبالغ عمرو
الكاشف زميل المهنة وصديقه الاقرب فى القاهرة فيؤكد ان حر هذه
المدينة له بعض من جمال خاص . وطعم مميز المذاق ربما كان سرا من
اسرارها المألوفة..

تحول الموسوع الى استقطاب متعصب بين حرب القاهرة وحزب
الاسكندرية دفع عمرو -المحب فى اعماقه للاسكندرية الى الجهر
موقف ماقص تماما . نعم لا احبها . ولا اطيعها.. ولا احب ان
نظروا الى هذا الاستنكار وكأى غلظت فى البخارى . نواتها
ترعنى فى الشتاء والرطوبة تدفعنى للجون صيفا . وقل كل شيء

انا حرة. وانتم همع شموليون متعصون. رغم تشذركم بالحرية
وصراخكم ضد القهر.. تمارسونه فى علاقات الصداقة والزمانة
والحب والزواج. انتم متافقون ازدواحيون ولا جدوى منكم.. تصلح
احوال البلد كثيرا اذا وضع امثالكم فى اكياس القمامة.

وللفندق الصمير الاكثر شبها بالنسيون شرفة نطل على الشارع
العجوز بمبانيه ذات الطرازين الايطالى والفرنسى. والشرقة تحولت
الى ما يشبه الروف المعد كمشرب مفتوح اصبح رغم ضيق مساحته
ملتقى لشريحة متنوعة من الصحفيين والصانين واخرين لا يحلو
بعضهم من شبهة ومثل الجريون والاولديون. كان الباك دور. وان
لم تتحقق له شهرة ريش القديم ويدعى عمرو الكاشف انه مؤسس
«الباك دور» وصاحب الفضل فى تحوله الى منتدى وملتقى ومقهى.

واى شىء اخر.. ولا يحاول احد ان ينازعه هذا الزعم او ينافسه على
تصدر جلسات المساء والسهرة. وليتها كانت سخوة الطقس قد
اثارت شجارات بين الكاشف «ومنعم الصيرفى» صاحب المكان
سبب تلكؤه فى تنفيذ المشروع الذى اقترحه عمرو «بتقيل» الروف
وتكييفه خاصة وقد جمع له من رواد الملتقى مساهمات مالية لها
شأنها.. ودخل يوسف فى لحظة احتدام الشجار.

عمرو بطبيعته العدوانية ولسانه السليط يتهم منعم بتدبير المبالغ التى
جمعها له..

- اعرّفك صروفها على المشوهات اللاتى يلتصقن بك كل ليلة
واللاتى يستن لسمعة المكان.

وينور الصيرفى مدافعا عن نظامه ذمته، وطهارة النات اللاتى يعشق

الفن ويبحثن عن فرصهن ويتطوع هو لحمايتهن من غوائل المدينة
وبلاويها.. ثم يعرض استعدادة لرد الاموال التى جمعها عمرو بعد
خضم ما دفعه من عرايين للشركة التى ستقوم بتقيل المكان.

اى شركة يا عمرو؟ من تطنا يا صيرفى؟ مخنومين على القعا أو ان
الباعو الذى تعبق به المكان كل ليلة لحس عقولنا؟

يتدخل يوسف فى خطة ما قبل الانسناك اليدوى ليفصل بين
الرجلين اللذين لن يلبثا بعد اقل من ساعة ان يتبادلا الضحكات
والقششات ثم ينتقلان الى حجرة بالدور الاسفل مع باقى شلة البوكر
ليلعبوا حتى شروق الشمس.

متهللا يواجهه عمرو بعد انفصاض الشجار سرك بائع يا يوسف
يا شفقى لا حديث لكل من فى الحوربال إلا عن الامر المساحق
الذى اصدره فوزى الشماع ليس فقط بحفظ التحقيق معك واعادتك
متعاملا بالقطعة بل تشيبتك محررا معنا ضمن الهيكل الوظيفى
للمؤسسة

لم يستطع يوسف ان يصمد طويلا امام نظرة عمرو الكاشف
المنفضة التسائلة فهمس له احتياح لمشورتك فلسفرد فى ححرته
افضل

عودتى هذه المرة الى القاهرة ليست ككل مرة. وانا نفسى لم اعد
يوسف الشفقى الذى كان قبل ايام قلائل. كأتى رحلت الى ارض
عريبة فقدت فيها زادى ومتاعى.. ورجعت وقد ضاعت هويتى
وذاكرتى.. أو كأتى خطوط على ارض رخوة سبخة فغصت فيها
حتى عنتى

- ماذا حدث يا أخيب خلق الله؟

- ليلة زين العابدين امام وهالة الرمادي

. السماء مظلمة بظلمة كثيفة حارح اطار الباصدة ودخان السحائر
«الملغمة» يتماوج نحو مسار الضوء الكهربائي متباطئا متثائبا.. الهواء
راكد وحبيبات العرق تلمع ببلمورات ملحية تعكس شعيرات
صوتية بدت لعيني يوسف استحابة فظة لما تكسر في جفونه من
نعاس مؤجل. لم أتم الليلة الماضية تقريبا واعتقد انني سأسقط في
بئر الهجوع بعد ان انتهى من رواية ما حدث كيف استطاع ان اشطر
نفسى الى رجلين في نفس الزمن أحدهما يروي قصة ما حدث في
ليلة مارييا والاخر يراقه ويفكر في اشياء اخرى لا صلة لها بالخزن
السبل الذي يحسه الاول؟. فلتكف الآن عن التلاعب بنفسك فقد
شارفت القصة على نهايتها.

... انهمك عمرو الكاشف في لف «صاروخ» جديد..

- ما بقى من الصنف يكفى بالكاد لهذا الصاروخ. وستنقسمه.. الم
تحضر معك (ماتيريال) من الاسكندرية؟

- أوصيت صديق ليحلب لى من ناجر في جبل ناعسة ولكنه لم
يرد حتى سافرت!

شعر بغضب شديد من صاحبه فقد افسد الخو المأساوى الذى
نظمه له وكأنه ملحمة من سلاحم التراجيلديا الاغريقية. وقد احاد
الاداء حتى اغرورقت عيابه بدموع حقيقية حين وصف له لقاء الامس
بالعم امام وباقي اسرة الفتى الخنطى..

- سمعت الحكاية ولم تعلق أبدو ما حدث لى تافها الى هذا الحد؟

. مر عمر بحافة ورقة الكرة المشرشرة على لسانه ببللها في احر
مراحل اعداد «الصاروخ» وسدد نحو يوسف نظرة مستقيمة ناعسة

تم عن اهتمام متوحس

ما حدث لك هو فرصتك الكبرى لتنتقل الى احوال الفضاء
الصحفى.. اصغى السمع وخذ كلامى بأقصى حدية تستطيعها ما
يتلقت الآن هو خوفك من ان تشهد بما رأيت مع صاحبك استاذ
الحامعة الذى ذكرته. فيفضب عيك آل الرمادى وكما اعداك
عبدالرحمن الى عملك بالصحيفة يتوسط في التكيل بك. أليس
كذلك؟. نعم حسا.. العقل والمنطق يقول ان عليك المبادرة
بالهجوم. واستخدام ورقتك الراحة ساوم الرمادى من جهة

ولوح في نفس الوقت لعورى الشماع بأن لذيذ قصة ستهز البلد من
ادباها الى اقصاها. ولك في النهاية ان تحنار افضل العروض. لا
تحملق في وجهى هكذا وكأنى اسمعتك كمرأ عليك ان تدخل المدار
وتسح مع الاحرام وإلا امتصت ثقب اسود وحولك الى ذرات من
عار يحمى يسبح في السديم بلا عاية وحتى يصل تمدد الكون اقصى
مداه فيتمحر وتقوم القيامة

أنت مسطول ما تطله منى يحتاج الى لاعب سيرك يسير على
السلك المشدود بدون عصا التوازن وبدلا من ان احقق المجد المنشود
سأهوى وارنطم بالارض وتذق عنقى!

ناولوه عمرو الصاروخ بعد ان عب منه نفسا عميقا توهجت به
زهرة اللفافة وتساقطت منها شعرات مشتعلة تحمد سريعا.

- انا مسطول وانت مخلول! قسمة الحق..

ومع قهقهة «السُّطْل» انداحت افكار يوسف كتيار متسارع النفي الكاشف بذرة راحت تتقلب وتتجوهر وتزايد سرعتها من حركتها الذاتية..

ماذا يساوى مبدأ اخلاقي في مجتمع يتجه الى نسبة الاحلاق؟ . لذا قال فوزى الشماع ذات مرة في اجتماع الديسك ان الصحفى الناحح ليس اكثر من بهاز للفرص! اذا فلهذه المهمة مبادئها الخاصة التي قد تختلف مع مبادئ اخرى لمهن محالفة . ثم ان شروط النجاة لمن يبلع الغاية أولها ان يكون له مخلب وناب . ومن العبث ان تترك نفسك يا يوسف يا اس الشفقى تحت ثقل من يفوقونك وزما ليدعوك! فلتكن ذنباً وسط الذئاب.

وفي الصباح امدته ليلته الطويلة مزاج معتدل يميل الى التحدى وقبول المخاطر . وفي الطريق كان يفكر فى وسيلة تتيح له ان يقابل فوزى الشماع ليلقى بالقفاز الاول . ولكنه هوجئ حين وصل باستدعاء عاجل يأمره بالثول فى مكتب رئيس مجلس الادارة . ورئيس مجلس الادارة هو نفسه رئيس التحرير . سطوة مهولة لهذا الرجل الذى يعرفون جميعا مدى قربيه من عصب النظام الحاكم . هو نفسه يتسم راضياً كلما ذكر امامه انه الصحفى المنصل . ولا يفتى انه قد يكون الكاتب الحقيقى للمحظ الهامة التى تلقى على الجماهير فى المناسبات السياسية الكبرى . دخل يوسف ومجرد ان عبر الباب الفصح احس انه يعوص فى قلب عالم آخر . لم يسق له ان دخل هذا المكان ولم يحظر فى محيلته ابدا ان يكون هناك فرد بالعلم ما بلغ من الخطورة والاهمية مالكا لكل هذه الفحامة التى بددت سريعا مزاج الصباح.

رقمه الرجل الاصلع - الصغير القائمة رغم خطورته سطرة من تحت حفين مسدلين الى منتصف العينين، وظل لا يمكن اقتناصه لابتسامة مراوغة.. لم يرد عليه التحية.. ولم يطلب منه الجلوس.. وامسك سيحاره الكوي الضخم ومرره تحت انفه الذى ارتجفت فتحتاه فى انتشاء حسى كأنه يتشمم عطر امرأة يراقصها . وتناول قاطع السيجار.. وقضم به الغلفة المسدودة ابتسم يوسف وقد شرد للحظات وعقد مقارنة بين قطع مقدمة السيجار وقطع علفة الذكور اناء الختان

قست نظرة الشماع حين ضبطه يتسم . ولأمر يعرفه وحده كان لابد ان يعنفه..

- لعلك تلقيت الدرس وتثلث عمرته.

- تعلمت ان انهج نهجك وانت المعلم العظيم..

سر الرجل للنفاق القابع . وراح يشعل السيجار يعود ثقاب واحد ظل بين اصابعه حتى كاد ان يلهب اصابعه . والقاه حطبا اسود ملتويا . واحتذب نفسا اطلقه سريعا..

- كيف رضى عنك المهندس عبدالرحمن الرمادى؟

اشار له ليجلس قل ان يجيب وبدا واضحا انه يريد تفسيراً وافياً مفصلاً..

- زرته فى منزله بمارينا واعتذرت له..

- اذا تعترف بأن ما ذكرته فى المقال -المشكلة- كان خاطئا؟

برق له الحواب السديد كومصة الهام قبل ان يتزلق فى مهوى الردود التقليدية . وبدا من اتساع حدقة الشماع انه ينلهف على واحد منها

يتيح له ان يصدر حكمه الهائى على هذا الشاب «الألعبان» لكن اجابة يوسف فاحاته حقاً..

— كلا .. لم يكن ما ذكرته خاطئاً..! واعتذرت للرمادي بك^١ التعقل والحكمة يفرضان الانحاء امام العاصفة..
— أنت منافق.

صفعه بها الشماع دوماً حدة أو عصب كانت باردة كشلح يلد ولكنها ارجعته سريعاً الى فراج الصباح.

— بل انا نهاز للفرص.. وهذه سمة الصحفى الناح كما حددت بنفسك يا فوزى بك.

.. اتسعت ابتسامة الرجل ..

— شاطر ! ولكن

انتظر برهة انحلع لها قلب يوسف ! «استر يا رب» من لكن هذه اى مشكلة تورطت فيها بالاسكندرية؟

ورفع ورقة امام عينيه

استدعاء عاجل للمحول امام النيابة العامة فى الاسكندرية .

... فعلها هائى ولم ينتظر كما وعدك ! الامر لله !

٧- الخطوط الحمراء

خط الرجعة

«بم ذهب وقيم أثبت يابن أبى؟ لم تتم يومين بالقاهرة.. هل رفتوك مرة أخرى؟ أظنك عملت «أبو على» وأطلت لسانك كالعادة على رؤسائك فشحونك برجوع الريد على الإسكندرية».

— صرك يا حسن يا غريب أطلع عن العادة الرذيلة التى نجعلك كلما رأيت وجهى تركبك المغاريت.. إنما أرحمنى شوقى لاجتلاء طلمتك الهبة ولحظك الفاتك!

— تسخر منى يابن جازية؟

— جازية هى أمى وأملك يا حسن فكف عنى لسانك وتعلم أننى مررت بالمحل قبل أن أنجى إلى البيت احتراماً لك.. فإذا لم يجد معك الاحترام فارمه وراء ظهرك ولتتعامل كالحواجات حقى .

وحقق...

فاجأت عضته حسن العريب فتسمر مكانه فاغراً فاه وشعب وجهه... بينما أدار له يوسف ظهره وعادر المكان... اقترب سيد المرسى — ذلك العامض الصموت الذى يدر أن يظهر ما بداخله . وكان يوسف كثيراً ما ينعتنه بوجه «الوكر»... ولم يعرف أبداً معنى

لهذه الصفة إلا أن البوكر هو إحدى ألعاب «الكوتنسية» - اقترح من حسن الشاحب المصدوم:

- الولد راحع مرهق وقرقان يا حسن فلا تأبه لكلامه ..

لم يحب حسن. فقط تحلى عن تحشبه وتحرك في بطة إلى مك القماش يتعامل مع رونة تقلب «البصاعة» من ساعة مضت! بينما يكمل سيد المرسى وهو يتجه لزبون آخر.

- يوسف يحبك ويحترمك يا غريب ولكنه فوجيء بك بدلا من أن ترحب به تأخذه على الحامي^١. ويوسف يلوم نفسه وهو يمشى في شارع العطارين تقوده ساقاه.. «حسن لم يحالف طعمه ياس الشفقى. ولم يقل غير ما يقوله كل مرة فلماذا انفجرت في وجهه بهذا الشكل؟». وما ذنبه هو فيما بصطحب في رأسك من أمواج الحيرة المتلاطمة تدور كالدوامة حول مشولك في العد أمام النبابة العامة؟.. . وحين ارتطم بحقيقة ما يحز به من تطورات ليلة مارينا كان يخطو داخل محل «على الأحسن»...

هل انكشف الحجاب عن أعين المرحوم خليل الشفقى حين سماه «على الأحسن»؟ أم أنها النبوءة أم لعائلها رمية من غير رام؟ قالت العمة روصة حين سألها في طفولته عن سبب التسمية - أسماء مجانية .. لأنها خليل في قعدة «حشيش». وعلى هذا. أحسن من بسلامته؟

. اختلف الأمر تماما بعد سنوات طويلة.. حين تقدم على لحظة وحيدتها «أمارة» ومع الرغاريد كانت تهتف «سماك الأحسن لأنك الأحسن يا حبيبي!»

... والآن ما الذى رماك يا يوسف..

عيننا على تضج بالسؤال ولكن لسانه لا يصرح به . فلم يكن يوسف قريبا منه في يوم ما لا أحد فى بيت الشفقى ظل قريبا من على بعد انفصاله عن تجارة الأخوة الموروثة فقد أدانوه جميعا حين شق عصا الطاعة على حسن الغريب وطالب بحقه فى ميراث الأب. وتناجرت ناطه مع عمتها روصه واتهمتها مع ابنتها «أمارة» بتحريض على واللعب فى دماغه. وطل الجميع فى البيت الكبير على بعد أقل من شعرة من الأخ الشارد حتى بعد أن يحج فى تجارته الحديدية وأصبح حديث العطارين ومطاط الحشرات الدفينة فى دابر البحر.

[جاليرى عروس البحر - على الشفقى وشركاه] لم تكن المرة الأولى التى يزور فيها يوسف متجرح شقيقه. ولكنها كانت المرة الأولى التى ينبهر فيها بما يراه .. حلال العامين اللذين لم يهوب فيهما نحو المحل . نفير إلى شئ مهول . «بخرب عقلك يا على كل هذه التحف والقطع النادرة التى تنسب لأفخر الأصناف والأنواع. ونباع أقل قطعة منها بمئات الجنيهات وقد يصل سعر أعلاها إلى عشرات الألوف؟ على الحدار . خلف مكتب على لافته تقول: هذا من فضل ربى ومن مبخرة نمية عامرة بالبخور الهندى والحاوى والعود يتصاعد أريج يجعل من حفيف الهواء المكيف لحنا يدعو للإخلاء إلى النوم».

- خطوة عزيزة يا أحلى يوسف فى بر اسكندرية..

هرته رنة الصدق فى عبارة الترحيب وكأنه يواجه على حين غرة

ذنبه القديم في حق علي... لئلا نلكن في الصورة غير طهره
 «البنسن» دو اللون البتروولى يلوح من فرجة الباب. منحنيًا على
 أدراج الدولاب الخاص بالأب الراحل لم يلتفت ولم ير يوسف
 غير لون البنسن. ومع ذلك حين صرخت الحاجة حازية صباح اليوم
 التالي للوقفة بأن المائة ألف جنيه التي كان المرحوم يودعها دولابه قد
 اختفت. سارع يوسف بناتهم على الأحسن كان ذلك هو يقبه
 وقتها وبكل حدة اليقين أقسم على المصحف أمام رجال البيت ونسائه
 أنه رأى على الأحسن رؤية مباشرة صريحة وهو يغتصب الأدراج
 المغلقة.. وصحلت على هائلاً في البداية ولكنه ما لبث أن صعق أمام
 نظرات حسن وسيد وباطه وأمه نفسها. وراح بصرخ غاضباً.. ثم
 يبكي مذاماً. وكان بكاءه هو تزمة الإدانة! «طفش» على من البيت
 وظهر في قرية العمدة «روضه» التي لجأ إليها غاضباً بجتر مرارة القهر
 والظلم. حتى تقدمت راما بشهادة مناقضة لشهادة يوسف «صاحب
 الخلباب البتروولى لم يكن على. كان «مسعود البحيرى» المستخدم
 في وكالة القماش والذي كان مقرباً من الحاج خليل ويلزمه كظله
 وفي مرضه الأخير كان ينام على الأرض في وفاء الكلاب... رأته
 وهم يقومون بغسل أبى في الحمام يخرج من الغرفة متأبطاً لمة كبيرة!
 كانت راما وقتها طفلة. وتشككوا جميعاً في روايتها ولكن سيد
 المرسى اخذني مسعود ونظر إليه طويلاً بعينيه الناعستين تحت جفنين
 نصف مطبقين... وهمس يعاتيه:

— من أمك لا تحويه ولو كنت خائناً. فما بالك ومن أمك في
 دار الحق ينتظرك؟

وانهار البحيرى باكياً وحشاً على ركبته يقبل قدمى المرسى وأعاد
 اللفافة التي تحوى السلع كاملاً. وحين طرده حسن الغريب اتجه
 مباشرة إلى المالح ولفظ السحر جثته على شاطئ الأنفوشى بعد
 ثلاثة أيام...

كان المرحوم يلبسه نفس ثياباً ويكسوه من نفس المقاطع. حتى لون
 القماش كان يوحده. وهماك حكاية سرية تتردد في بعض الأرقه
 والحوارى المتفرعة من دابر البحر تقول أن «مسعود» ليس إلا ابن
 خليل في الحرام من «زينات المرحاء» التي تركته في حجرة وهربت
 بعد ولادته بأيام.. وتولته الحاجة جارية التي عهدت به إلى نظيرة
 بنت الجدة «سوريا» من زوجها اللبى..

أصر حسن الغريب أن يذهبوا جميعاً بربطة المعلم ليصالحوا على
 الأحسن ويعودوا به معرزا رافع الهامة إلى البيت. وظل يوسف
 بعدها وطوال سنوات يهرب من ملاقة على أو النظر في عينيه أو
 حتى التواحد معه في مكان واحد! وكان على كلما لقيه بهش له
 ويناديه سارحاً «يا ظلمنى» لم يتحدثا في الأمر أبداً. وحرصت
 الأسئله في العيون وذبلت الإجابات على الألسنة. ويوسف
 يعجب لنفسه كيف تقوده قدماء لملى بالذات وقد كان يوى
 استشارة حسن؟ «اتراها ترضية يقدمها له معتذراً بعد ما يقرب من
 العشرين عاماً؟

— نورتنا يا أبا حجاج!

— عندك وقت لى يا على؟..

— وقتى كله تحت أمرك ولكن إذا كنت تريد أن نتكلم في موضوع

راما فلا تنعب نفسك يا حضرة الصحفي راما لحأت إلى مستعبه
تستجير بي من عسف وتحكم حسن الغريب... ولن أخذل لها
«تركت راما المنزل؟ إذا فهي لم تنق لحظة واحدة في وعدك لها
بالتدخل وإنشاء حسن عن إتمام الزيجة المكروهة! الله! زما
البيت وقد اشتعل فيه الحريق...»
— لم أتى بخصوص راما ولم أعرف أنها تركت البيت إلا منك هذه
اللحظة..
— تريدني في أمر آخر؟..

قالها على بشرح حقيقى «فلتأمرنى يا أحلى أعرف أن حسن بور
التجارة ولم يعد معه ما يسد حاجات الجميع.. وأنا سداد... كم
يلزمك؟

— لا تفسد اقترايى منك يا أحسن بعرض النقود والاستعراض على
خلق الله!

انكمش على معتذرا وأصاخ السمع
«ماذا أفعل يا على وأنت رحل السوق الناجح الذى يتناق
الجميع أخبار شطارته وحكته؟ هل أختار الطولة بالانتصار
للحقيقة والعدل.. أم أختار الجحاح والقوة باعتزال الرأى وانكار
الرؤية؟...»

يسار الخط السابق

واحدة محل الأحوة «الشمقى إخوان للمايسانورة» تسقط عليها
أشعة الشمس الغارة . لكن «النندة» العريضة تحول دون مهاجمتها

لأنواب القماش... يقف سيد المرسى بين حسن الذى أدار ظهره...
ويوسف الذى وقف على الرصيف أمام الباب
— ادخل يا يوسف.. لا تتحدث وأنت واقف على الرصيف!
— أنا فى طريق لموعد عاجل! أردت فقط أن أصالح حسن!
حكك على يابو على لم يرد حسن (رغم طيبة قلبه كان رذيلًا فى
خصامه).

— عملت ما على ياسيد يا مرسى! بلغ أما على حين يعتدل لك
بوجهه أن راما تركت البيت ولجأت لعلى الأحسن!

ولم ينظر يوسف ليرى انفجار القبلة التى أنقاها! . هو لا يريد
الانغماس فى حرب الأسرة حين تشتعل بين حسن وعلى وتنفجر
معه مخزونات الإحس القديمة الراسية فى أعماق النساء الراضات
على الأرامل القديمة وكراسى المطبخ أكداً من رماد الغيرة
واللوعة الكسيرة والأحلام المحيطة . وأصداء المحاولات المتوارة،
يعرف يوسف أن الركود قد طال وأسدل أسحة العسكوت...
وصدنت أسلحة الزلزال وتن حميعا فى نوق بومى مكون للاشتعال
والنوهج ولو فى مسارب الحدودى المفقودة . «بعد الجدة سوريا
ومحالفها القديم مع سلمتها هنيات رعم الشقاق القديم بين
عبدالبارى الشفقى وشقيقه حمدان لم يشهد الحرملك أى تحالفات
أخرى. كانت هنا هدنات متاثرة واجتماعات صباحية فى شتاءات
مختلفة.. نيدى فيها جميعا كأنهن سمن على عسل كذلك
الصباح المشمس الذى تلا آخر أيام نوة «العطاس» ونسلق فيه
يوسف ابن السبعة عشر عاما السلم «القالى ليطل على سطح

ترددات أثرية ويتجمع فى ذبذبات أخرى ليكون صوتاً حاضراً فى «المكان» . أعنية تهزج بالخان قديمة لما نزل تسجد... وتلاشى كل ما ينبو عن بقطة فجر هرم كادت شحوه الحدثنان!
تكاد عظام يدها تنهرس فى قبضته... وهو بهمس .. عدد صوفى؟..
— أما زالت هـا؟...

خط النسخ

لم تبح! رغم سوات عمرها التى تجاوزت السمايين. تدير ذلك الركن الخاص تحت الماكينة القديمة فى شارع «أنوس» محافظة قدر ما تستطيع على السمة الحميمة والطابع «الأجريكى» بنفس الشعابرات والعلامات التى وضعها حدھا «أندرياس» وحافظ عليها الأب «ناماشى» إلى أن فردات صيف مع مجدة الحلبيزية فى الخدمة الطبية لحيش جلالة الملك خلال الحرب العالمية الثانية. واختفى إلى الأبد...

تحفظ صوفى سجل الدقائق والساعات وأحداث حمسين عاماً أدارت فيها الـ «أفروديتى».. وتحفظ ذاكرتها أيضاً الوجوه وقصص العشاق...

بنفس البسمة التى لقيتهما بها منذ أكثر من خمسة عشر عاماً.. وطريقتهما الخاصة فى الترحيب..

— يوسف.. وحاب.. فرحانة برؤيتكم!

وتدير لهما نفس الاسطوانة العتيقة «حبنى بركة.. حبنى بصدق»!
ويقول يوسف لرحاب إذ هما فى الركن المحاور للنافذة المعرشة بفروع اللبلاب...

البيت المجاور يريد أن يستدعى باطه لأمر عاجل... وراهن وقد اجتمعن... مجموعة من نسوة بيوت الشفقى المتجاورة يعرضن أنفسهن للشمس حاسرات حلابيهن حتى الوسط وقد اهتمكن فى إزالة الشعر بمعائن «الحلاوة» وهن يسمرن بأحاديث تتحللها صحكات تتواءم مع الأسرار (المعلنة) رفعت أم شوقى رأسها وحدثت به متسائلة التفنن جميعاً حركات وتقارين يردن الاستار لكن أم شوقى — تلك المرأة البضة التى سكنت أحلام مراهقته الجامحة. ما لست أن طمانهن هاتفة — لا تحضن. إنه يوسف!
.. كم كرهها بعدها!.. «وماذا كنت تتوقع؟ أن يقطعن أيديهن من خلاف ويتذهلن فى عشق الملك الكريم؟»...

أفاق على نظرة الدهشة الساخرة يحدده بها الرجل الواقف فى الترام قرب مقعده. ضبط نفسه بضحك بلا صوت. وقد داعته ذكرى ذلك الصباح الفاضح. ونهص ليترك الترام قبل محطته الموعودة فى «حليم». مثلما كان يفعل قديماً.. حين كانا يتواعدان على نفس المحطة حتى يأما مفاجآت أهل بيت الحوينى.. وفور نزوله من عربة الترام تسمر مكانه وقد توهجت كل الموحودات حوله.. كانت رحاب تنتظره.

— لا أصدق الصدفة!

— ليست صدفة.. سمعت رفيق يرد على مكالمتك.. وحلمت بأنك ستهبط من الترام فى «محطتنا» القديمة..

تفتت أحجار السنوات الثقيل فى لحظات. يصهر الزمن ويتحول من الصلابة إلى السيولة إلى الغازية.. يصحح نسيمًا. يتبدد فى

— كائى لم أفارقك كل هاتيك السنين!...

— كائى لم أرك إلا الأمس... وأحببتك بالأمس!

— لكنى أعشقتك اليوم... وأريدك الآن..

. نكست رأسها... «أستطيع الإنسان أن ينسخ ما جرى بما هو
حادث؟»

الأمل فى السببان يبدو تعلقا بالمحال فما زالت النيران التي
اشتعلت فى دماثة يوم زفت إلى «الآخر» تهش كل وريد وتحرق
كل شريان متى تذكرها. «كيف ينسى أنها أعطت نفسها لغيره؟»
— لم أعط نفسى... أعطيت فقط حسدا لا يزيد عن رداء يمكن أن
يغتسل ويتطهر!

— حديث الهراء بعينه! فى هذا الحسد مسام أنبجس مها عرق
الاستمتاع فوشحها... ومسارات لمستها أصابعه فدنستها..
— لقد كنت زوجته!

ضرب المائدة الخشبية بقبضة يده «لم تكونى إلا زوجتى أنا» بشرعة
الوعد والعهد والقلب وينفس الشرعة أنت حائنة!
— وأنت مجنون!...

— لا فائدة! لن ينسخ اليوم أمسا فما يحدث هو العكس.. الأسس
هو الناسخ الذى يسيطر ويسمم كل ماهل النع! لكن صوى
جاءت وجلست بينهما... أمسكت بأيديهما

— تذكر! الحب فقط... هو وحده السيد الناسخ!...

عبت لهما رقصت. فتاة فى الثمانين لم تستطع ثمانيتها أن
تسيها من أحبت... «لا أحد يعرفه... ولم تتحدث عنه لإنسان..

ويردد بعض القربين منها أنه معشوق صنعه خيالها...»

... سقطت دمعان من عيني رحاب على كفيه...

— ألن تفقر لى أبدا؟...

ماذا يقول لها وقد ادباحت به جنون المحال إلى شواطئ سوداء
مقفرة؟ يقول لها إنه طلب المغفرة هو نفسه استمرارا فى مفارقة
الذنب؟ «... كان جبينه يلسع حارا... وأصابعه ترتعد لاتقوى على
الامساك شىء.. احتوتها هى بن كفيها. ومالت تلثمها لا تمشأ
بالدموع المتساقطة... مال رأسه.. ولا مس جبينه جبينها..
وصمتا.. وكفت دموعها... وجمعت أصابعه فى كفيها... وهمس
بنمرد على صمته لا يريده...

— رحاب... أنا فى ورطة!

— الفنى الذى قتل؟...

— أمثل غدا أمام النيابة لأدلى بشهادتى!

— كرر عليها ما قاله منذ ساعات لعللى الأحسن:

— ماذا أفعل يارحاب... وأنت أقرب من يهيمه أمرى.. وأبعد من

أعرف عن الهوى والغرض؟

هل اختار البطولة بالانصرار للحقيقة والعدل. أم اختار العجاج
والقوة باعتزال الرأى وانكار الرؤية؟

.. والشمس تهرب ملقية لهبها بعيدا.. ورصيف «الكورنيش»
المنسج عند «باسترووس» دى الشراخ الخرسانى المطل فى فحاجة
جارحة على المتوسط.. كانت الخطوات تسترجع حولات مماثلة فى
الأمسيات البعيدة

ماذا يمكنها أن تقول له وقد سمعت الحدال الدائر بين أبيها وأحباها عن الحزن الذي يمكن أن يدمر يوسف الشفيق لو «قل عقله» وورط آل الرمادي في قضية «معبد الجامعة». الاسم الذي اختارته صفحة الجرائم بجرمة «ماريا»...

.. هل يمكن أن يتفق رأي على الأحسن مع رأي رحاب إلى حد التطابق؟ أدهشه السؤال وإحاسته التي استقرت في صدره كالغصة المائلة لا تتزحزح.

الحقيقة نسبية والعدل طرفي. والبطولة هي الوجه الآخر للحماقة... والعصر هو مرتع النجاح والقوة.

وحين أطلق الفسق أوصل صاحبه إلى بيت حلیم. كان رفيق في الشرفة لوح له ليصعد فأشار له رفضاً وأدبر مصرفاً يتصيد سيارة ناكسي توصله إلى «لوران».. وبأدبه سائق عجوز مستهجا - أنت شاب. أمشها يا أخى!.. وكان هذا مقدرًا لبلحق به رفيق! - لماذا لم تصعد يا يوسف؟

- دعني الليلة برفيق في ما يكفيني ويفيض!

- فالح فقط في مواعيد أختي المتروجة؟ اسمع يا بن الشفيق بيبي صداقة وعيش وملح وسنوات طويلة فلا تفسدها..

نوقف يواجه غير عابى «بازدحام الشارع»..

- من الذي أفسد سنوات الآخر يا بن الجويني؟ أنت وأملك وأبوك ثلاثكم غصبتم رحاب دوني واستلبتم مني حلم البكور وإدأ أردتها اليوم فلن يحول مخلوق بيني وبينها..

فاجأت لهجته المتحدية صاحبه فوحم يحملق فيه دهشًا مأخوذاً.

- ما الذي أغضبك في قوله حق؟.. أنرضي لأحتك باطة أن..
- لا تمقد مقارنة غير جائزة وغير صحيحة. باطة لم تغصب من رحل كانت تريده..

وأدار له ظهره وأمعن في سيره لا يلتفت نحوه.. حتى حين سمعه يسبه ساحتًا..

خطوط متقاطعة

لم صايقه أن يشير رفيق إلى حكاية «باطه»؟ هو يعلم جيداً أن باطه هي أمه أكثر من الحاجة جازية. بل هي أم كل الأخوة المتحدرين من صلب حليل عبد الباري الشفيق غادة دابر البحر في شبابها.. تلك التي سقت رجال الربع وحيرة الجيرة من مراصمتهم مرا وسهدا. هو لا يعي من الأمر غير ما يرسب في ذاكرة العلام الذي كان بغادر عتبات الطفولة لتفجؤه ارتباطات المراهقة. وأصيل ذلك اليوم الخريفى حين تربنت «أبله باطه» على سنجة عشرة. وتندلرت للقاء خطيبتها «سمير الطرفاوى» رينة شباب الدابر ودابر الدابر.. الفتى ذو الوجه.. الـ

نسمر مكانه... الفتى ذو الوجه الخطي!

نفس السحنة يا يوسف ونفس العينين ونفس الانسامة.. سمير الطرفاوى هو رين العابدين إمام! وكلاهما استشهد عشقا في عصر تباع صواته في سوق النحاسة!

. ذاك الأصيل.. كان اللقاء الأخير.. بين عطيات وسمير..! صامتت الشمس العاربة على حرف المتوسط وجهه حين خرج من باب البيت. ووجد جابر «القرعة» في انتظاره شاهراً «السنجة» ولم

كأن قدرك أن تشهد الهيايات..»

فى الشرفة العلوية لقبلا لوران أطل قمر مشوه يحسو نحو
الحاق - ورائحة الياسمين تتماوج مع سمات سبتيمبرية أفلتت من
شرد النهار الحار .. والقديل الأخضر يسقط علالته على وجه هانى
الكرداوى الذى احتضن صدره بدراعيه وعلت عسبة ما بين حاجبيه
عينان مرهقتان احاطتهما هالات السهد الملعذب .

— ما الذى أتى بك إذا وقد استشرت وأتوك؟!

— أريد أن أعرف ما قلته فى شهادتك أمام النبأ!

— شهدت بما رأيت!

— الظلمة كانت سابغة. القمر مخسوف والحر أسود..
والأضواء بعيدة.. فكيف رأيت؟

. رقع هانى بظرة ساخرة

— كما رأيت أنت يا حاضرة الصحفي خدام الحقيقة!

.. نهض إلى السور. وارتكز على مرفقيه كأنه لا يريد أن يرى وجه
صاحبه..

— لا أستطيع بادكتور أن أحزم بما رأيت. لا أستطيع أن أقسم على
شهادة أذكر فيها أنى رأيت ابن الرمادى ورجاله وتأكدت من
وحوهم وهم يطاردون زين العابدين ويطبقون عليه وأنه هو
بعينه من سحلوه على الرمال وجروه إلى البحر وأحاطوه بزبانية
آخرين يركبون اللنشآت التى دارت حوله تصنع تلك الدوامات
التي أغرقته بعد أن ضربوه على رأسه ليفقدوه وعيه!..
واستدار إليه وكأنه يعرض برهانه الساطع...

يد أكثر من ابتسامة دمة مبتورة حين احترق النصل صدره لم
يصرح ولم يصدر عنه مجرد آهة تقياً دما ثم انطرح صريعا وجواره
وقف «القسزعة» يطعن نفسه ويضحك. ثم يقمى بجوار حسد
سمير... ومن دمه هو يرسم خطوطا على جبهة قتيله.. ومن دم
سمير يرسم خطوطا على جبهته هو. ويصرخ مخاطبا الجمع الذى
تحلق حوله من أهل الدابر:

— عرضت عليه أن اقتسم ثروتى معه... قلت له يا سمير خذ عمارة
السياسة. وأرض العاصرية وسيارتى الحديدية ونصف مالى فى
البنك. لحلال عليك. اتركها لى بت الشفقى لن تكون لغبرى!
ولكنه ركب رأسه ولم يصدقنى! لم يصدقنى بأعالم.. لم يصدقنى
يا هووه!

. يذكر يوسف أن «باطه» لم تصرخ ولم يغم عليها ولم تدرى
دمة فقط تحشت كالموتى واصفر وجهها وعمنمت سباط قلب
مخلوع: يا ضنا أمك يا حبيبى!

ويغشى الذاكرة ما يغشاها فلا يذكر بعد ذلك المغيب أن باطه هربت
رحلا أو طمعت فى رواح. يذكر فقط جملة وحيدة رددتها على
مسامع العمة روضة..

— زوحي الأول والأخير تحمم بدمه قبل العرس فصرت حراما على
سواه...

حرمت باطه نفسها.. وحرمها أهل الدابر.. وانقطعت السيرة!
«.. تعلم الآن يابن الشفقى ما الذى جذبك إلى الفتى احطى ليلة
القمر المخسوف... وتعلم سر العينين النجلاوين والبسمة الأسرة

٨- خطوط الطول

— فى صميرى أعرف أنهم هم . ولكنى لا أستطيع الشهادة بأنى «رايتهم»!.. أتدرك الفارق يادكتور؟.. راحة الضمير تشترط أن تتحد الرؤية مع المعرفة!

«.. عيبا الرجل الرقيق تلمعان بوميض حاد كأنه انعكاس ضوء مبهرج على حافة سكين تم شحذه فى الحال . ووجنتاه تبصان فى رعشة هى تعبيرة الوحيد عن العصب . وبصوت هامس يترامى إلى الأذن وكأنه يصدر من غور بئر سحيقة.. أصدر أمراً صارماً..

— لا تتحدث عن الضمير! الكلمة تنغمس فى الدنس على لسانك! أصابته الكلمة فى صدره! أصابت العصا رأس زين العابدين إمام أصاب نصل السجده صدر سمير الطرفاوى. الدم أركى من الكرامة المهانة

كان إصبع هانى السبابة يكاد يلمس طرف أنفه...

— لقد أخسرتهم أنك كنت معى.. وأنا رأينا معا ابن الرمادى يقود القنلة وتستطيع أن تردد أمامهم سفطتك وهراءاتك المتخاذلة لتركع أمام عبدالرحمن الرمادى وتلحق الغبار من فوق خذانه افعل ما تريد وقل ماشئت وفقا لضميرك «البنى» المعروض للبيع فقط... غيب عن ناظرى.. ولا تدعنى أراك فى هذا البيت مرة أخرى.

ضحى يوم فى منتصف الخريف

لم يتحسر الظل كثيرا عن حذار المبنى المقابل المائل عن بعد من حلال
النافذة العريضة المفتوحة حلف مكتب المحقق (رئيس نيابة أو مجرد وكيل
للمائب العام - لم ينتبه جيدا حيروه قبل دخوله المحبرة - رآه شابا نحيلاً فى
منتصف العقد الثالث ملامح نثى بأصل صعيدى لا شك فيه) كان
يحجب على الاسئلة المعتادة فى مقدمة المحضر وهو يتساعل عن توتره
بمراقبة حركة الشمس فى الضحى من خلال حركة المساحة المظللة على
واجهات تقابل الشرق..

- صحفى؟.. فى أى جريدة؟..

بدت فى عيني المحقق لمعة اهتمام غير مهية حين ذكر له اسم الصحيفة.

وأشار إلى سكرتير اليازة بأن يتوقف لحظات عن التدوين الرسمى

- صحيفتكم هى الوحيدة التى لم تشر حتى سطر واحد عن حادثة

مارينا؟

». ناقش الأمر خلال رحلته الأخيرة إلى القاهرة مع من لقيهم من زملائه

وعلم من تلميحات متتارة ان الرجل «الكبير» يراعى خاطر الرمادى.

بينما وبخه مدير التحرير حين سأل (وما أهمية حادث غرق عادى يتكرر

كل يوم طوال فترة الصيف؟. دماغا يابوسف. اذا كان لديك تفاصيل تستثير حاسنك الصحفية اكتبها وهاتها)..
- هذا ما أنوى ان أفعله!..

رقم رجلا النجاة بنطرة استفهام.. (نعم؟)..
- اجهز حاليا تحقيقا صحفيا عن «ضحية عيد الميلاد» هكذا اسمى موضوعى!..
- حدثنى عنه قليلا!..
- لم اكتبه بعد!..

- لا أقصد الموضوع.. حدثنى عن «الضحية»!
فى المحضر الرسمى قال انه رآه لأول مرة فى فيلا الرمادى مساء يوم الاحتفال وحكى وقائع الليلة حتى المطاردة التى بدأت من سلم الفيلا إلى البهو فساحة الانتظار الخلفية..
- وبعدها؟..

- دعانى الدكتور هانى لاصاحبه فى بعته عن زين العابدين . وحين وصدا لشاطيء البحر خارج القرية رأيا مجموعة تطارد شخصا عرفت بداخلى انه نفس الفتى ولكنى لم أر ملامح أحد . كان الخسوف قد حجب سنا القمر واصبح الظلام سابغا..

- وفى ساحة الانتظار .. هل غيرت احدا من المطاردين؟
- فى الساحة كانت هناك مصابيح نصىء المكان وكان الرجال الذين يطاردون الفتى يرتدون الزى الخاص بحراس الأمن فى الفيلا!..
- يقول الدكتور هانى انكما شاهدتما الجريمة بوضوح وتاكديما من شخصية القاتل ومن اشخاص قاتليه..

- كما ذكرت بداخلى اعرف انهم هم! اما رؤية العين فلا اقسم عليها .
- وهل هذا ما تنوى كتابته فى تحقيقك الصحفى ؟ . تعرف بداخلك فقط؟..

رنة السحرية فى صوت المحقق اختفته واثارت فى نفسه مشاعر عنادية حاول ان يكتنها ولكنه لم يستطع فقرر للمحقق انه أدلى بكل ما عده ولايوجد ما يضيفه وبدأ ياردا غير متعاون فى اسئلة اخرى حاول الرجى بها ان يتحاذق مشيرا إلى علاقة حاسر الرمادى بهاله ودخول زين على الخلط..

- سنسمى تحقيقك الصحفى ضحية عيد الميلاد أليس كذلك؟ والصحية طبعاً هو زين؟ . والمستفيد من موته هو حاسر . العاشق للمحور ورجال أبوه وحده هم الاداة التى نفذت حكم الاعداء إنها سلسلة ألا ترى ذلك؟.. أليس هذا ما تتضمنه موضوعك الصحفى؟ اتعرف يا استاذ يوسف ان مثل هذه الجريمة تصنف فى القانون الفرنسى بأنها «جريمة عاطفية» ويكون الحكم فيها على المدان حكما محققا للعامة؟
مالى أنا وقانونك الفرنسى؟ وما الذى تريد ان تستدركنى إليه؟. انطسى اخشى الرمادى انت ايضا؟ نعم هانى يظن هذا.. وعمرو هناك فى القاهرة! هل يبدو على وجهى انى من هذا النمط المسوم؟ حسنا سترون جميعا..

- تلونا عليه اقواله ووقع؟..
لم تبرق عيننا هذا الحفيف خلف نظارته يسرق انتصار محطوف؟.
فليرقص اذا شاء . انالهم احالف ضميرى بكلمة! شهدت عما رأيت وقلت ما اعرفه.. لم اخلط هذا بذلك.. الرؤية شىء والمعرفة شىء آخر..

كانت رحاب تنظره جالسة حلف مقود سيارة انيقة لم يرها من قبل.
- سيارتي . شحتتها قبل عودتي .. ووصلت منذ أيام . وأخرجها رفيق
بالأمس فقط.

- هل اشتراها لك ذلك الذى بعته من اجله؟..

مغضب توهج فى عيها اصابته .. لم يدفع من ثمنها فلسا ابى ارسل
ثمنها كهدية فى عيد ميلادى الماضى بعد ان علم انه لا يريد ان يشتري لى
حتى الثياب بعد ان تأكد من اصرارى على تركه¹¹ هل ستركب الآن ؟
- هل تنهين معى إلى غريال؟..

عيها الفتى الخطي لا تكفان عن الوميض¹ كأن من خلال الصورة
المعاطة بشرط الحداد يتصر على موته ويفرض وجوده الخى على كل من
يظر إليه . وهكذا تسمرت رحاب ولم السؤال الذى وجهه «هاى»
ليوسف: مالى اتى بك إلى هـا؟ هل أرسلت الرمادى لتساوم اسرة
القتيل؟ كم يعرض من اجل الدية/

.. ويستدير إلى الرجل المهلم: كم تريد ثمننا لدم زين يا عم امام؟..

جذبه يوسف بحشونة إلى السطح المعاور . وامسك به من ياقة سترته
يهزه وكأنه يريد ان يطرحه ارضا «كف عن وسواسك الغبى» .. لا
احد يستطيع ان يشتري أو يحترق صميرى ولقد ادليت اليوم نأفوا إلى
أمام النيانة اذهب وراحعها ان سمحوا لك ولكن لاتواصل
عدواك تحاها¹ انا لا اصدق ما تديه من حزن ولا اصدق تسحك
الثالى من احل العدل انت مدع يا حضرة الدكتور¹ بل انت ارهابى
لا أكثر!

لم يحاول هاى أن يقاوم او يحلص نفسه من غضبة يوسف لكن عده

طلنا ثابتين على نظرة اختراق صارمه تكرر مع السؤال. ما الذى اتى بك
إلى هنا؟..

افلتته وهو يستدير ليواحه شمس الروال.. «اردت ان اراك . ويقينى ان
تكون هنا.»

خط الزوال

انحدرت أشعة الشمس عند حافة شاك «الصالة» لتسقط محروطا من
ضونها على الحداد الذى يحمل الصورة وكانت «زينب» تبكى والام
نقص حكايها زين على رحاب بايقاع «العديد» . وهى تخط على صدرها
بدقات رتبته مصاحبه . والاب يضع رأسه بين كفيه وفى الخارج على
السطح يهمس هاى مؤكدا «سأزوجهـا» فقط بعد شهور الحداد وتقدم
الفتلة إلى القصاص!

رحاب تعصر مشاعرها قبضة بأصابع حجرية تلمس قلبها فتوحه تحس
هجة نارغة فى الفرار ومراحة بيت الاحزان هذا. لكن عبي الفتى فى
الصورة تسمرانها فى المكان . تخفق فى حلقها كلمات الاستماعة.
بابوسف.. خذنى بعيدا عن هنا. عمرى ما حضرت معزى ولا أحاط بى
السواد سمعت مرة صراخا فى عمارة محاورة واصوات ساء بولول
وصوت شيخ يقرأ القرآن فى صوان قريب من عمارها ولكن لم
انحمل فأخذتنى امى إلى شقة المعمورة ما الذى اعراك باحصارى إلى
هـا²

فى طريق العودة اصصر هاى ان يقلعهما فى سيارته . ونحرد حروجهم
من «عريال» عاد إلى اهاب «الرحل الرقيق» وكانت رحاب الحالسة فى
المعد الخلفى تشرد ناظرة إلى وجهه فى مرآة السائق..

برى اصلا وحه «الاهدى» ولاتنوى ان تدخل معه فى شجار أو مجرد حوار وكـم تمنى لو تم كل شىء يهدوء وبدون صراعات أو وحـم دماغ..

لم تمد يدها لتصافحه - فمئذ ما حدث تلك الليلة - وحسدها بقشعر لمجرد مرور ظله يحوارها.. ولم تجلس رغم نظرة الـاب الغاضبة ولهجة الأمرة - بالراحة وبدون وجع قلب.. سأبريك وأرد لك هداياك.

- لم احضر لا طلق لقد منحك الأجارة التى تريـح اعصابك.. وستعودين معى..

هل كانت تضحك وتصرخ فى آن واحد اسامهم أم تراها فعلت فى داخلها؟ كل ما تعلمه ان الطين اصم أذنيها.. احست فقط بجملة واحدة تردد على لسانها..

- تريد ان تبينى لمن هذه المرة ايها القواد؟..

مياه الخليج ساكنه.. راكدة.. والرائحة عطية لكن التكيف المركزى بالمشمى الفخم يحول المطر من النافذة العريضة إلى مجرد لوحة باهتة الألوان توهج سلون ابيض حيرى يوسع النظر وطيب الجليزى يقيس لها ضغط الدم. وتحدث إلى صديقها الفلسطية. وهى تحاول الخروج من النقع برغبة تحرقها فى بقاء الألم مدفونا حيث كان.. ومن حالة التأرجح بين العفوة والانتباه استطاعت ان تلتقط من كلمات الطبيب ايها تعافى لتوها من حالة انهيار عصبي حرجة - وانه بوصى الجميع بأن لا يذكروها بما حدث.

ما حدث؟ ماذا حدث؟ ابيضت الستائر والمريـات ثم اخترقت وهج الابيضاض كرة حمراء ثم اسودت ولم يعد هناك شىء - وعلى حافة

يقول يوسف انه استاذ مساعد فى كلية الآداب. ابن ناس ووحيد امه.. ماذا يتوافق هذا مع ملامحه.. بشرته البضاء وشعر رأسه الناعم الفاتح المائل للشمرة ووجهه الخالى تماما من أى آثار خلقة الدقن أو الشارب. (هو الذى يسمى فى لغة الرجال «اجردى»؟.. ربما.. ولكن خطوط جسمه المحيية ورشاقة حركته أثناء قيادة السيارة.. تغرى بالـ)

ساعتها فقط انتهت إلى أنها سبت سيارتها الحديدية فى الشارع المؤدى للحارة عند بيت زين العائدين! صرخت فافزعت كلا الرجلين! اسخطها ان تنسى اليوم كله بعضـها وعبارات البهذنة التى يسرى يوسف فى اغراقها بها تثير فيها اخنوع عادا بها إلى سيارتها احديـة سارت خلف هاسى حتى انتصحت لها المعالم فاطلقت متصلة عنهما بسرعة اثارت دهشة.

«ما الذى اعضب صاحبك لهذه الدرجة حتى رفضت ان تقلك معها نم ابتعدت عنا وكأنها نفر من وباء؟»

- زيارة اسرة زين اركبتها واصابنها بالاكثاب.. ما كان يجدر بى ان اصحبها معى!..

. وقرب فيلا «لوران».. سألـه بعد صمت طويل.. «خطيتك؟»..

- انها اخت صديق.. وهى منزوعة ولها طفل!

.. فى شقة «جليم» المظلة على البحر وقف رفيق ينتظرها وحين لمح سيارتها تقترب هرع ليستقبلها فى مدخل العمارة «اسمى! الـادى روح حضرتك وصل فحاة. وهو يتفـرك مع ايـك وامك إلا تشرب المشاكل ودعى اليوم يمر سلام!»

تكلمة اليوم!.. أى مشاكل تلك التى يتحدث عنها رفيق؟ هى لا تريد ان

العودة كانت هناك فتيات يرتدين اللباس المحلية ويرقصن رقصتهن المبررة التي يطوحن فيها الشعر الطويل يمنة ويسرة على ايقاع لم تسمعه لان اذنيها انشغلتا بأغنية لرحل من اهل البلد يغنى متأوها عن القلب اللتان الذي لا يحتمل غيبة الحبيب ليلة.. وتقاطعها ترنيمات فولكلورية من تراث المنطقة عن مركب الهدهد.. «يا مركب الهند يام دجبله - باليتي كنت ريانا. لاكتب على دفتك سطرين.. اسم حبيبي وعوانا..» ثم تزكم انفها تلك الروائح الحريفة في حى يقطنه الهنود.. ورائحة لحم محتلطة برائحة مخلفات الاغنام ولبن الماعز في وجبة «المنسف»! نفس الرائحة التي تصاعدت من وجبة اللحم الحاضرة التي انتاعها الزوج لتكون طعام السهرة التي دعا اليها كفيله المليونير الذي كان يفترسها بعينه منذ لحظة وصولها إلى مدينته الموبوءة الوباء بظال ارواح الشر ويدفعها ببوع من الطاعون لم يرد ذكره إلا في العهد القديم.. انفاس الرجل والابخرة المتصاعدة من فمه تتابعها اينما ذهبت.. وحين شكته إلى زوجها نهرها وأمرها بأن تكون لطيفة مع الناس الذين يملكون مقادير الأمور . ولن يمصها احد أو يأكلها! «. هذه الليلة يا خيري يهمس في اذني طوال السهرة انه يراودنى عن نفسى . ماذا تنبسم هكذا؟»

«من تطنين نفسك؟» قال لها وهو يتحرك خارجا بحجة صندوق الويسكى في السيارة . وأخبرها الضيف بان رجلا لن يعود قبل ساعة لقد تقاضى ثمنك بالفعل باصباحة العفة! ثم حرت تلك المطاردة التعمسة التي اكتشفت خلالها ان زوجها قد اعلق الباب بالمفتاح من الخارج وحين خرجت إلى الشرفة وصرحت تستمجد.. كانت شرفة مغلقة بالزجاج المدخن العارل للاصوات . ثم ضربت الضيف «بالقاز المورانو»

في وجهه. ليصرخ معولا. وتهرع هي إلى الحمام وتلق حلمها وتسقط مغشيا عليها لتعود إلى وعيها متسرلة بالوهج الابيض في المستشفى والمستشفى هذه المرة كان يظل على المتوسط . وحاجبها بجلس رفيق وامه . يسكان يديها ويحاولان ان يخسراها بأن البذل قد خرج مطرودا.. (هل سمعت؟.. ربما في فسحة خاطفة حين اخترت زرقه البحر وهج الزوال!.

«اين يوسف؟ يوسف كان هنا.. كلاله يكن يوسف وحده يستطيع ان يخرجني من القاع!»

خط النساء للمطر

شرفة الياسمين والقديل الاخضر تشهد حلولا مبكرا المساء غير عادى وجدالا ساخنا بين هانى وامه في حضور يوسف الذي احس بحرج شديد واراد ان يتسحب..

«بل ابق يا يوسف.. هانى يتحدث عك دائما بما يؤكد ان لك تأثيرا عليه لينك تصحبه يصحني سأل شيء يا امي؟ زواحي أمر يخصصى وحدي..

الام تكاد تحس لاصرار هانى على الزواح سأحت زين العائدين وهرح «ناسى». تلك التي خطت له منذ عامين كاملين واتصفا مذ شهرين على اتمام الزواج' والنت «لقطة» تحفه حقيقة تحمل بذرة حملات فرسى من امها . ووحاشة المال والمركز الاجتماعي من ايها! كيف يمكن لهذا «الولد» ان يكون بهذا القدر من الغباء؟

مرت دقيقة ريح سريعه بلا مقدمات . وعمقت طلال المساء الرمادية حين اطلت تلك السحب التي حثمت فحاة وقد مأت بحملها (اي مساء

غريب! مطر قبل (أواخر سبتمبر ..) يوسف يفسر الأمر: هي نوة غسيل البلح. تأتي كاعلان مبكر عن حلول الخريف!.. تركت السيدة الشرفة مسرعة إذ كانت تمقت المطر.. وبقيا هما يستنشقان رائحة الثقاء الماء بمخزون الحر في الجدران والارضية.

.. في المناطق المدارية تهطل الأمطار العزيرة في مباح حار.. اما عندما فلا بد ان يقرن المطر بالطقس البارد. حسمى مبلل. ولا أعرف هل هو عرق ام مطر...!

ونزع هاني قميصه. ولم تكن هناك ثياب اخرى تحته «هيا.. انزع عك ثيابك مثلي.. ودعنا نتحد مع الطبيعة الام!.. وضحك يوسف»
- الطبيعة الام تفرض ان نكون عرايا كما ولدنا!
- ولم لا؟ فلنتمتع كأننا نولد الآن فقط..

تردد يوسف ولكن هاني الذي رافقه اللعبة راح ينزع عنه قميصه..
«.. عيب عليك يا شبا والشمس طالعه. واحدة من أهاريح الاحتف. بالأمطار.. كم كانت عذبه دافئه تلك الخيوط المناسبة من مسارب الشعر في الرأس إلى الحصة فالانف فالنم.. وعبر سلسلة الظهر إلى مفترق الإليزيين. وحفل الاستحمام الجماعي على سطح البيت في دابر البحر كانت امطارا صيفية ابصا.. ويومها قالت الام جارية ان مطر الصيف لا و ان يعقبه موت زعيم أو رئيس. وبعدها بشهر واحد مات جمال عب الناصر..
- آيا.. مالذي يبيك؟..

كان خليل الشفقي يبكي كالأطفال بين رجال الدايير الذين اصطفوا امام محلاتهم أو جلسوا على الارصفة يخطبون رءوسهم باكفهم.

ويصرخون بكلمات احتجاج ملئاع.. والنساء يسرن زرافات وقد ارتدين السواد واعتصبن بغللات بلوحن بها وهن يطلقن «الصويت»..
«شردت مع الامطار مثلي؟

عاد يوسف من رحلته القديمة ليتأمل هاني مبهوتا. اي لونة اصابته حتي بقف عاريا تماما في الشرفة وقد ضم زراعية متقاطعين حول صدره كمثل فرعوي.. وراح يلحق قطرات المطر المناسبة على وجهه باستمتاع.. ولم يصدق يوسف ان ما يسمعه هو صرخه حقيقية حتى التفت وراها تحملك في هاني ذاهلة ثم تدور على عقبيها وتحجى..

احمر وجه هاني اخيرا وهو يغمغم: هي ناسي! لا أعرف ما الذي اتى بها في وقت الامطار الغريبة!

تهدي أم هاني من روع الفتاة «هكذا هو يا عزيزتي.. يعشق المطر! وعلى كل حال لم يكن يتوقع حضورك..». ودخل الرجل الرقيق وقد ارتدى ثيابه.

كأول قوس قزح الذي يحرم السماء عقب انتهاء الامطار.. كان هذا الرجل اي رقة فيما فعله هذا المساء؟ التوحد مع الطبيعة بلون المطر الرمادي. والخط الاحمر يتمدد خجلا في عينيته وزرقة الحزن السابغ حوله في القلن كشميرات انتها العضب وغسلها الدمع يبدو شرسا في لحظات انفصالة.. وريقا في اقترابه..

بأني يفتاته ناسي ليقدمها ليوسف الجالس وحده في الصالون يعاني من بلله المزرى..

- يوسف. رقيق الليلة اياها التي حدثتلك عنها.. صحفى بابيه يتطره عد واعد..

خط الليل وآخره

في حجرة الخلوس العتيقة كانوا هناك في انتظاره . حسن الغريب الذي انتفخ ذلك الوريد فوق حاجبه الأيسر واكسب وجهه بصرامه حزينة واحمرت عيانه دلاله ارتفاع الضغط (حذره الدكتور شعيب مرة بأنه «بعوت صريع سكتة دماغية اذا لم يراع ضبط ضغطه» .. وسيد المرسى منهمك في لف سيجارة «ملفوفة» . وجازية بكى في صمته .. وباطه لثظي انفعالا وتولى عن الجميع ابلاغه بالقرار:

«يوسف يا حبيبي انت وحدك من يمكنه حل الاشكال .. اذهب إلى بيت علي الاحسن وعد برمائه ! .. حسن شراني واذا اصطدم بعلي ربما قتله وتكون مصيبة .. وسيد «نى» لا يستطيع مغالبة الاحسن .. وأنا ساخرب «امارة» بالمداس ! وتكون فضيحة . رمتهم بظره متعبه مثقلة وقال: «البلغنى على طهرا انه لن يسلم راما إلا برغبتها . فلنذهب امي سيخجلا .. ولن يرجعها خاتنة».

احشنت جازية بالكاء ..

«نريد ان اذهب لاشحذ نتي من عممتك روضه» .. نرضاهما لامتك يا يوسف؟

«فليكن .. سأذهب .. ولكن ماذا أفعل لو رفضت راما ان تعود معي بكلم سيد المرسى . ستعود اذا ابلغتها اننا صرفنا النظر عن العريس للرغوض .. ويهب حسن واقفا كالاعصار:

«ورحمة أبى في نومته لازوحنها بمن اريد . اذهب يا أحلى وبلغ اذارى الأخير لعلى الأحسن .. عليه ان يحمل الثنت راما حملا ويعيدها إلى هذا البيت ماذا وإلا فليعد نفسه عدوى ليوم الدين . وسأصعه في دماعى ولن

.. الفتاة شقراء باهرة .. كشف بشرتها الوردية حتى لتبدو غير قابله للمس .. وصدرها الفسوح للمتصف يشى بكاعين ثريين يعلوه عنق روماني ورأس قرعوني متوسطه عيانه .. بنفسيجيتين .. «نعم احسبك عليها» وتريد ان تتركها لربيب احت زين؟ .. آه .. لعلى مدنف بحب رحاب لكنى اتنى ان «امتلك» ناسنى هذه . أيها الكافر من يجحد العممة يستحق لعنة الاولين والآخرين ! ألا تحس بمنعة وكسرية الامتلاك؟

.. في طريقه للخروج صحبته ام هاني «بالله عليك يا ولدى اهذه الست ترك؟ لم يجبهها . لان السؤال يحمل اجابته . ولم تكن هي تتوقع منه ان يجيب .. همست توصيه» - لا تتركه يا يوسف الفلق عليه يفسر سنى ويعاودنى كابوس أرأه فيه يفرق وسط البحر ويستغيث ولا يسمعه احد أما في الشرفة حيث غسلت الامطار كل ما علق بفروع الياسمين وزحاح القنديل . فقد جلست «ناسى» صامه كفيها بين ركبتيها .. تنظر لهاي عابسة منصته وهو يبلغها بقراره التمس .. «انت ملكة حقيقية . تستحقين عرشا بطوف حوله ويسجد امامه افضل رجال البلد . وأنا صعلوك في داخل حقيقتى أسوأ كثيرا من مطهرى . لست ذلك البجل الذي يظه الآخرون . فقد وقعت في عرام من لاندانيك ولا تستحق ان تكون وصيفتك . أنا لست حديرا بمثللك فانفضى يديك منى ..»

صغطت ناسى بقوة على كرزى شفتيها حين ايضنا وشحب نور وحتيتها . وابعقد ما بين حاجبها - ربما منعنا لانفجار وشيك - ثم نهض وخلفت حاتم الخطبة من اصبعها وفي تؤدة وضعت امامه على «امر» الشرفة . وادارت له ظهرها .. رما للأبد!

٩- معنى الخط الدائري

يهدأ لى بال حتى اقطع فرطه من الدنيا.. وتقول جازية مادية الدهر الذى جعل فلذات اكبادها يتادلون الحقد والكراهية ويعترض يوسف.. لا داعى لاعطاء الامر حجما لا يستحقه راما فى بيت شقيقها وله فيها مثل مالك يا حسن! فلتركها هالك حتى تم.. انتم تعرفون البنت . لا تستطيع ان تعاشر عمتها ولا بنت عمتها.. وعاجلا او آجلا سنشتعل النار.. وستعود برجليها اما الزواج فلا توجد هناك الآن بنت ترغب على الزواج..»

يجأ حسن غاضبا: قلت لكم ان على الاحسن قد وصعه فى حيه! هذا جورنا لجنى «حلنحى» يلعب على الجميع ويصف مع الراية.. ولا أمل فيه.. سأذهب انا وآتى بنت الكلب ولو سلسلتها بحنزير!

خرج كريح عاصفة ولم يسمح لاحد منهم بمراجعته رغم صراخ جارة وباطه التى اهابت بسيد ويوسف ان يلحقا به حتى لا تقع كارثة فى بيت على..

طمأنها سيد مؤكدا ان العمة روضة موجودة.. وحسن بهاها ويعمل لها ألف حساب.. وأمن يوسف على راية بأن حسن يحمل قلب طفل ير جنيته.. «وسيد هله» على الاحسن ويلفه حول اصبغه الخنصر.. وتقول باطه: «اكرهك ياولد يا يوسف حين تحدثت عن شقيقك الاكر هازنا» لكن باطه تعرف اكثر من غيرها إلى اى مدى يحب يوسف أخاه.

السقوط فى فتح الظهيرة:

حين يغلق يوسف على نفسه باب حجرة البرح يفصل تماما عن عالم البيت فإذا نام فكأنه «غطس» فى بحر لا قرار له . ويغيب عنه تماما كل ما يحدث فى عمق المنزل حيث تقع حجرات باقى أفراد الأسرة.. لكن الليلة حارة.. ومسامه ينسجس منها العرق كالميازيب. « الرطوبة هى المشكلة ! من الجاهل الذى ادعى ان رطوبة الاسكندرية تنتهى بانتهاء اعسطس؟.. ها هو سبتمبر قد انتصف وكل شىء ساخن مبلل والانفاس تترشح تحت ابخرة الماء المشع بالملح واليود.. سبتمبر؟. لماذا نستخدم الاسماء اللاتينية للمشهور؟. ولماذا لا نفضل الاسماء الأخرى التى يستخدمها أهل الشام؟.. يامال الشام يحلوا يامال. طال المطال..! أيلول أحلى من سبتمبر وتشيرين أكثر جمالا من اكتوبر . إلى اى لغة تنتمى تلك الاسماء. قال عمرو ذات مرة إنها اللغة السريانية!.. فى اى قوم تنسب؟.. لا توجد فى التاريخ حضارة سريانية!. فى تلك المنطقة كان هناك فقط سومريون وآشوريون وكلدانيون وبابليون وفينيقيون... ولم يكن هناك سريانيون . اذا فلغة من تكون؟.. لعلها لغة سرية؟ سرية أم سريانية؟.. لعب

بالالفاظ.. أو لعب بالـ... يبدو ان هناك صلة ما بين الحروف..
والخلط لايجوز بين الاسماء والصفات . واذا كانت سرىانية تشبه
سوريا أو هي نفسها ينطق مخالف لكنها لا تعنى السرية!.. وجدته أم
خليل اسمها «سوريا».. سألته مرة في طفولته. ما معنى سوريا؟ في
اسرته وأسر أخرى في الحوار تسمى النساء كثيرا باسماء البلاد
فهناك فرنسا وتركيا . وأعجب من سميت كذلك الحاجة «حجازية»
هنا بـت حجازية.. شعرها صانئ. لفتني على حصاني.. وحصاني في
الحزانة.. والحزانة عايزة سلم.. والسلم عند النحار.. والنجار عاير
سمار . والمسمار عند الحداد . والحداد عاير فلوس.. والفلوس عد
الصراف.. والصراف عاير بيضة.. والبيضة تحت الفرخة. والفرخة
عايزة قمحة.. والقمحة عند الناجر..

اتصلت السلسلة حتى البقرة التي ترفض ادراك اللبن لأنها تريد الحشيش
والحشيش في الجنة.. والجنة عايزة حة.. والحة في ايدين البسات
هل الحشيش هو حشيش المرحي؟ ذلك النبات الأخضر البري الذي
يكسو المروج.. أم هو «حشيشة الكيف».. كله نبات ياسي يوسف
كلا البقرة لا تأكل «القب الهندي».. الذي كان يدسه «حسن الصباح»
لمريديه في قلعة «الموت» فيسطلهم ويوعز اليهم وهم عارقين في
اوهام «السلطان» انهم قد دخلوا الجنة «والحشيش في الجنة!.. أما
البقر فاذا تناولوه فقد اصابهم الجنون.. جنون البقر!.. النوم يداعب
جنونك وتحاربك تنداح بلا نهاية «على النعمة انت المسطول الاكر
بلا حشيش.. النوم قادم على فراش من المخمل والمخمل هو
القطيفة»..

- اريت يا أحلى؟.. أحوك حسن اهداني بمقطع قطيفة «زبدة» هي عيد
الأم.. حاجة جازية.. لم تسميتها قطيفة زبدة.. ألهها نعومة الريدة؟
الله على رائحة الريدة التي كانت تفوح من ثياب عمتي روضه حين
تحتضننا مرحبة أيام القرية . وباسلام على رائحة تسييح الزبدة في
موسم البرسيم من كل عام.. ولا «المورنة»!! موسم تخزين السم
البلدي وموسم تصنيع الصلصة.. وموسم تشوين القمح وغسله
وطحه.. بنهملك البيت كله في انجاز المهمة وتخلو كل الغرف
لألعاب الصبيان والبنات.

كن يحبك يا يوسف.. كل نبات دابر البحر . وكن يختلسن الفرص
لنقبيلك.. (ياولد يا محطم قلوب الحسان.. ماذا دهك؟.. «خشرت»
واصابتك الدمامة مع تباشير النضوح . لكن نانسي هذه حكاية.
والأحمق هاني يريد زينب! كلها واشيع بها. ودع لي نانسي التي
لصحتي «صهدا» لحظة أن لامست اصابعها.. اصابعها فقط.. فما
بالك لو..؟ لو ماذا يامسطول؟.. امرأتك هي رحاب هي انك
الموعدة.. رحاب.. حلم لياليك الذي لا يغادر.. لا يرحح..
في التليفون توصيه كل ليلة..
- خذني في حضنك وغمض عينيك..

وتنهزح أم كلثوم «فادن منى . وخذ اليك حنانتي.. ثم اعضض
عينيك حتى ترائي».. متى دخل الفجر.. ومتى رحل.. ومتى
نسللت الشمس ثم ارتفعت ومتى حلت الظهيرة؟.. تغيرت الدنيا في
ساعات نوم سعتصب متأرجح. انتهت حين سمع الدقات على
الباب. خفيفة متكررة ثم صوت الأكرة و«تزييق» المقصلات

الصدئة.. لم ينظر لسمع صوتها فقد كان يعرف انها هي . ولم ينتظر عودة حسن الغريب ليلة أمس .. ليعرف نتيجة زيارته ليست شقيقه على الاحسن كان واقفا.. على أذكى . ولكنه فى اعماقه يحترم شقيقه الاكبر إلى حد الخوف . ولن يستطيع ان يصده رعم تحريضات عمته روضه وحرمة الست أمانة..)
- راما ! اتركينى أكمل نومى..
وراما ! تدغده فى بطن قدمه ضاحكة لا بد ان تنهض فصاحك تنتظر !.

من ؟ لا بد انه هانى .. ماذا يريد هذه المرة ؟.
اعتدل حالسا على طرف السرير .. أدهشه ان يرى كل هذه البهجة على وجه رامة !.. وهو يعرف انها ستمود مع حسن .. ولكن كارهة مرغمة .. وكان يتوقع أن يرى تورم عينيها من الكاء واكفهار سحتها .. وطول لسانها كشأنها كلما حزنت أو غضبت..
- خير ان شاء الله ؟ ما الذى يهيجك فى هودتك لدابر البحر ؟
- تمهد الغريب واقسم على المصحف امام الحاجة روضه انه لن يرضى على زوج لا أريده.
وفى حجرة «الجلوس» .. لم يكن هانى..
جاء رفيق بصوته الاجش..
- مكتوب على وفوق جبينى بان الشفقى .. كأتى خلفك ونسيتك !
- ماذا تريد يا بن الحوينى ؟. وقبل ان تحيب بكلمة موضوع رحاب غير مطروح لاي نقاش.
- وحياة الحاجة جارية ؟ تريد ان تحرم على ماقشة ما يتعلق بأختى ؟

حقا.. انت فاجر ابن فاجرة .. ومع ذلك لم آت من أجل رحاب..
حئت من أجلك انت وان كنت لا تستحق... هيا.. لا يوجد وقت نصيحه.. الناس فى انتظارنا!
- أى ناس ؟
لم يتصور يوسف للحظة ان عبد الرحمن الرمادى سيظهر ثانية بهذه السرعة ! ودق قلبه بمنف.. ما الذى أرجع الرجل إلى الاسكندرية بعد ان غادرها منذ الحادث مع افراد الأسرة جميعا ؟.. وماذا يريد منه ؟
السؤال ساذج . والموضوع لا بد أن يتعلق بقضية حالة وزين العابدين)..
صعود جبل النهار

لم يتجه صوب العرب هذه المرة، لرم رفيق الصمت عابسا وأدرك يوسف أنه قد جرحه حين فتح موضوع رحاب . وانتهدك مشاعر المسئولية داخله نحو اخته..
- لم اقصد ما قلت يارفيق لكنك تعرف قصتى مع رحاب.. وتعرف ما جتته ايديكم على وعليها.. لم يحبه رفيق وظل مكفها حتى توقف أمام ذلك الفندق الفخم.
- إنزل !

لهجة أمر صارمة تشى عذى ما يساوره من غضب !.. «نادرة تلك المرات التى غضب فيها من يوسف . ولم يدم غضبه فى اى منها اكثر من دقائق.. كان يحبه لدرجة انه لم يناقش حتى مع نفسه درجة ارتباطه بصداقته حتى جاء ذلك اليوم منذ ثلاثة أعوام خلت.. حين انفجرت بينه وبين ابيه خفاقة لرب الخو لانه طلب منه ان يتعد عن

يوسف.. وانتهت بالجوينى الكبير إلى وجوم أخرس لم يفارق علاقته
بابنه بعدها.. فالاول مرة يداخله الخوف من ابنه الذى راح يخور
كالثور.

- اسمع يا حاج والله لو عاودت الحديث فى هذا الموضوع لأذهب
إلى السجل المدنى وادفع رشوة مليون جنيه لاغير اسمى من رفيق
الجوينى.. إلى رفيق الشفقى . وأقول للناس اتنى فعلتها لأن المرحوم
خليل عبد البارى الشفقى هو أبى الحقيقى!.. مبسوط؟..
لكن شيئا أقوى من الغضب كان يمنع الرجل من النظر إلى صاحبه أو
الالتفات نحوه! هل يكون احساس مبكر بالذنب؟.. ربما.. فرفيق
كمادته يساوى بين جميع الاحتمالات وان تناقضت..

الجناح الملكى فى الفندق يبدو وكأنه جزء من قصر حقيقى
والرمادى.. وابنه.. ابو هالة. يبدوان فيه كصاحبى جلالة بكل هذه
الفخامة التى يرتعان فيها.. ولم يقطن يوسف فى بادىء الأمر لرجلين
أو ثلاثة محمولي الهوية يتسائران فى اماكن غير ظاهرة وقد برزت من
نطاقاتهم تلك الغدارات الموحية بخطر لا يبين.

هش له عيد الرحمن وقد علت وجهه ابتسامة ودود لم يمنحه مثلها
من قبل..

- أهلا بالصحفى السابقة! لعلهم يماملونك الآن بالحنى فى
الجريدة!..

«بداية موفقة يا عم عيد الرحمن ها أنت تلوح بالجزرة قبل العصا
وان خيبت ظنى.. فلم اكن اتوقع منك هذا الأسلوب المباشر الفع
ربما كنت انتظر نوعا من المناورة الذكية

لماذا يتسم هكذا فحاة؟.. اتراه يقرأ الافكار؟.. ابتسامته هذه لاتعنى
إلا معنى وحيدا.

- اصبر على رزقك فالأسطى لم يلعب بعدا..

فى وسط الثروة عس صلة قديمة تربطه برئيس التحرير فاجأه بسؤال
الانتقال!

- ماذا قلت فى تحقيق النيابة فى قضية الشاب الذى وحدوه قتيلا
خارج فيلا «هالة» بمارينا؟

(الرجل ثعبان حقيقى أفعوان مقرن يعرف متى يلف حول نفسه
لينقض! المهم ان تحترس وتحاول دائما دفعه للانقضاض العشوائى
الخائب.. وستذكر له ببساطة انك ادليت بما رأيت..)

- فعلا أنت لم تر ملامح من كانوا هناك ليلتها!

- لكنى أعرفهم..

ساد صمت ثقيل. كأن اطنابا من رطوبة الصيف المحتضر قد سقطت
فحاة داخل الحساح الملكى فالجحمت الألسنة وأعبت الأنفاس.

وحملت من جو المكان وسيطا دبقا له طنين ذباب غير مرئى.

وبعد ثوان بطيئة متجمدة تزحف ببطء اللحظة الراحنة.. جاءهم
صوت طفلة تصرخ فى تمثيلية تليفزيونية كأنها تكسر حاحز
الصوت.. وأشار الرمادى بإصبعه.. فانفلق جهاز التليفزيون..

- ايمكن ان تذكر لى اسماء هؤلاء الذين تعرفهم؟

- حفيدك على رأسهم!

تدوجت كرة الثلج من القمة فى طريقها إلى السمع وراحت تستدير
وتتكور وتضخم.. حتى اصبح من المستحيل ان تصل لمستقر فحالة

الحركة الدائمة هي «وجودها» الخاص.. ومرت ثوان أخرى أطول من سابقتها قبل أن يخرج صوت الرجل كما كان رخيمًا.. وادعا كأنه يردد أشعارا يحفظها:

- هل ذكرت هذا في التحقيق.

- سيدي أنا أعرف! ولكني لم أر لهذا فلم اذكر اسماء كنت افكر تحديدا في الفارق بين التاجر القاضى وبين الناحع والعاذل.. (أحسن وهو يتدفق انه يقول أشياء لأمعنى لها ورأى الرجل يحملق فيه متفرسا ويحاول ان يبين اذا كان جادا أم هو يسخر منه..)

- ولقد كنت مسحدا في اقوالى رغم محاولات المحقق ان يميل بها واصررت على وجهة نظرى فى التفرقة بين الرؤية بالعين والمعرفة بالمطلق والادراك العقلى.. الاولى ثابتة ثبات الجهاد والثانية قد يداخلها الحمس والتصور.. هل تسخطى حاجز الصبر لدى الآخر؟.. ربما.. فالرجل يتململ) - اذا كنت تشك في يقين ما تعرفه فلماذا تذكره؟

- حتى لاتندو شهادتى بلهاء ويظن المحقق اننى اخشى ذكر الحقيقة!

- وصديقك الآخر؟ استاذ الجامعة! لماذا لم يفرق مثلك بين الرؤية والمعرفة؟

- لانه واثق من أنه رأى «تعرف»!

كان رفيق طوال الحوار يرمقه بنمس النظرة الغاضبة والسحب المكفهر.. والان تملو وجهه مسحة من دهشه متزعجة وتحولت نظرنه إلى تحذير مستغيث.. بينما تخللته هو مشاعر مسكينه صوبه

كأنها تسامات عليله تسلسل في يوم قاتط.. حتى لقد أحس بالتعاطف مع الرجل الذى وصفه منذ دقائق بالأفعوان.

وحين رآه ينهض من مقعده الوثير ويتمشى ببطء في المساحة الكائنة بين شرفة الجناح والبهو الصغير المحاور لحرارة النوم.. مثيرا حركة تأمير مرتبكة لدى حراسه ومرافقيه. كان على يقين من ان الرجل يعانى من حيرة حقيقية.. وحين توقف احيرا بجوار مدخل الشرفة واثار له ياصبغه ان تعال لم يضطرب أو يساوره اى خوف ومصى إليه حتى كاد ان يلاصقه ويحس بحرارة انفاسه المشبعة برائحة «التمباك» ولاحا في عيون الآخرين كأنهما صديقان ينساران بعيدا عن المسامح الفضولية.

- اسمعى يابنى! أريد ان احدثك قليلا عن المملكة التى شيدتها واتربع الآن على عرشها. أموال ترصف المتوسط من الاسكندرية وحتى أرمير أو ينوسيا.. أعمال تفتح بيوت خمسمائة موطن وألمى عامل. مصالح خلقت حولها سياجا من الحماية الشرسة لان العبث بها لايمكن قوله أو السماح به. كيان اصبح عامودا من أعمدة كيان اكبر هو اقتصاد بلد بأسره. والمساس به دونه دماء نفرق الجميع! أنا أكره ما حدث. مثلك تماما وضميرى لابقره

والمسألة لا علاقة لها بحبى لحفيدى. فالخطر اذا تفجرت هذه القصبة سيتجاوزها إلى السمعة والصيت والمركز المالى وقيمة الأعمال فى السوق والبورصة وقد يؤدى إلى الخراب ويدمر هذه المملكة لتسقط انقاصا تدفن تحتها مئات الأرواح!.. شهادتك فى التحقيق متوازنة ولا اعتراض لى عليها.. وتفرقتك بين الرؤية

والمعرفة بعض من عبقرية تأثير الاعجاب.. لكى اطمع بك فيما هو اكثر.

سكت يتأمله .. ربما ليتعرف على رد فعله.. وكان يوسف متشعبا يتسم ويكمل له ما يعنيه.

- شهادة هاني الكردي! اليس كذلك؟

هذا العجوز رأسه نائبا كأنما خاب أمه في ذكاء الفتى . ثم قاده بلطف إلى جلسة الشرفة.. ومنها كان النهار يطل من عل ليقطر غلالة من الرهبة المتوحشة على مخلوقات وأشياء صغيرة لأيدابه في السيطرة عليها إلا الأزرق المتوسط.

- صاحبك هاني أمره ميسور وستكفل به!

. جاءه واحد من خاصته بالنارجيلة.. «أتريد واحدة؟ عدى تماك إبرانى لايمادلة تماك في العالم.. وادا أردت معسل عادي (لزوم الحشيش) فلدى هبو لبنانى اصلى غير مخلوط.. اتعرف ان لى مزرعة في سهل عكار بها محرقة حشيش خصوصى لتجميع «الهبو» .. لا تنظر لى هكذا! انا لا أتاجر فى المحدرات.. المسألة كلها لاستعمالى الشخصى واهداء الاصدقاء .. وصاح برحل الخدمة..

- جهاز «فرشين» واصلهما لبيتى الاستاذ يوسف والاستاذ رفيق!

وقبل ان يعترض عاد الرمادى إلى هدفه.. تحدث طويلا عن حاجة المصالح الاقتصادية الكبرى لدرع صحفى يحميها وعن إيمانه الراسخ بما يمكن ان يفعله صحفى وطنى ذو ضمير اذا تولى امر صحيفته جديدة ينوى الرمادى مع رجال أعمال آخرين ان يصدروها وشيكا

- واذا أردت ان تكون اصغر رئيس تحرير فى تاريخ الصحافة المصرية.. فالنصب تحت أمرك!..

.. كان النهار طويلا.. مجهدا.. صعب الارتقاء.. وكان المساء بعيدا.. غامضا.. ممحا باحتمالات المساء طبعاً هو أسبب وقت للزيارات الودية، ولو كانت مفاجئة وبدون موعد سابق وقد رفض الخادم المس دو الوجه النوى الصارم ان يسمح للصيوف بالدخول فلم نخطره الهاتم انها تنتظر احدا.. أما الدكتور هاني فقد اغلق على نفسه حجرة المكتب وهذا امر غير مباشر منع ازعاجه لاي سبب. ولكن الحاح «الفنات» الاشداء المتحلقين حول عبد الرحمن باشا دفعه آخر الأمر لادخالهم إلى الصالون.. ومضى يعلم أهل البيت وقد اوقن ان الليلة ربما كانت آخر عهده بالاسرة التى خدمها طوال خمسين عاما

عنتمة المساء تنسكب فى الافق. وفى قلب يوسف وهو يشهد أنوار الاستقبال السفلى نضاء وفى محل الطعام السريع المواجه للفيلا راح يرشف فجان القهوة الأمريكية وهو يغالب فضوله.. منع نفسه اكثر من مرة حتى لا يعبر الطريق ويدخل ليرى ماذا أتى بالرمادى الكبير إلى هاني الكردي. ربما كانت هناك ارهاصات أو احتمالات تدور فى ذهنه وتتمحور حول لقائه مع الرجل فى الطهيرة (لا شك انه سيقدم جزيرة أخرى للرجل الرقيق.. ليت هاني يتأنى قليلا ولا يفجر اللقاء قبل.. قل ماذا؟. قبل اى شيء والنصب سيسد كل

الطرق.. وعليه ان يحذره.. وهب مسرعا إلى التليفون

- اخبرنى مسعود هذه اللحظة.. وسأرتدى ثيائى لأقابلهم..

- اسمع الرجل للأخ بادكتور لاتدع غضبك يفسد الأمر..

- كأنك تعرف ما يريد؟

- كنت فى طريقى إليك حين رأيته يسبقنى.. وأردت ان ادركك قبل ان تغطى صهوة العزة بالإثم!

.. فى الصالون تمددت شحنة كهرومغناطيسية تشيع النفور والغض (لم يتعود الرمادى ان يحب احدا وكان اللفظ نفسه يثير نفوره إلا اذا تعلق الأمر بهالة منها لله - هى سبب كل ما يحدث). وهو لم يحاول ابدا ان يسأل نفسه عن مشاعره تجاه اى من يتعامل معهم . ولكنه الآن لا يملك إلا ان يكره هذا الرجل ذو البشرة البهلورية التى تنف عن أدق شعيرات الدم.. والعيان اللتان ندوان مشعتان نوح ليلي ميكر.

وهانى يتأمل الرمادى لأول مرة عن قرب بعد ان لمحها سريعا ليلة خسوف القمر ومصرع زين العابدين . وشعر ببرودة غامضة ترتجف فى أعطافه «الرجل له رائحة الفورمالين فى المشرحة مختلطة بعطى رماد التبناك المنبعث من مياه النارجيلة عند تغييرها»

لم يرحب به.. سألته بجفاء عن سبب الزيارة.

- اتهمت حميدى فى تحقيق النيابة بأنه قتل ذلك الفتى ليلة عيد ميلاد اقمته فى بيتى!

- لقد رأيته!

- كيف يمكنك ان تراه فى ظلمة الليل بعيدا عن الاضواء؟!

- لقد رأيته!

- خدعتك حينك.

- لقد رأيته!

- إصرارك هذا يشير إلى نية مسبقة للإيقاع بحميدى. أجل.. فمن انت اولاً . وما الذى جاءك كثيرة تبعثها الحيرة فى طريق الليل كاللغام

قارب لي بحر على قوس الافق:

خمر الظهيرة حارة تلذع على اللسان وتصيب الحسد بالخمود وتتكسر وسنا تحت الاحقان! لكنك لم تشرب حمرا.. فماذا سفاك الرمادى؟ ما الذى جعلك تقبل هدية المخدرات تصل إلى بيت السفقى فى دابر البحر؟ وما الذى ابقاك صامنا وهو يتلو عليك مزاميره؟ الافعوان يقدم لك رشوة صريحة. ثمرة الجذر معلقة بخيط.. ولكن العصا محتفية! لماذا لم تجادله لظهرها؟.. سيارة رفيق تقطع الطريق.. يقودها وقد ذهب عنه غضب الصباح وافرجت عصبه ما بين حاجبيه وهو يتغنى بالسعد ووعد الرمادى الذى يفتح أبواب الفردوس.. رفيق راض عنك لانك بدوت فى عينيه سمكة ميتة خرجت فى سناة الرمادى.. التقطت الطعم يابن الشمسقى . وانغرست الحورية فى حلقك.. فهل تستطيع الخلاص!..

- رفيق! انت تعرف هؤلاء القوم.. اتصل بهم فورا وامع حامل المخدرات من الوصول إلى البيت فى دابر البحر! ابوس جزمك!..

فاجأت لهجة التوسل ونبرات الفرع صديقه فرمقه مجفلا متسائلا.. - لاتفسد الأمر فى يدايته.. سيعتريها عبد الرحمن بك اهانة ويأخذ على خاطره!..

- يأخذ على خاطرة أو يأخذ علي قماء أو حتى مؤخرته.. المهم ألا

تصل الكارثة إلى البيت! لو رأيتها خانتك حازية أو باطه أو وقعت في يد حسن الغريب لقامت القيامة .

عادت التقطبة إلى جهة رفيق وهو يحاول الاتصال عبر المحمول (قيامه من يابوسف باشفقى؟..

نسوة اي بيت في دابر البحر وفي كل شوارع بحرى يعرفن الخشيش ويقمن مرص الجوزة للرجال.. أما حسن الغريب وسيد المرسى فهم من اساطين الصنف والمزاج في عموم بر اسكدرية آه.. كل ما أخشاه ان تكون على وشك إفلات الفرصة .)

- يوسف! لبوس رجل من الجبوك انتهب فرصة عمرك ولا تنضب الرمادي كان رد يوسف مقتضباً ضاعف القلق لدى رفيق ولكنه اضطر للسكوت على مضض وان لم يتخل عن المحاولة.. قال لرحاب: اذا كنت تحبين ابن الشفقى حقاً فاسدى اليه النصيح! الرجل الكبير باداه بالكرم والملاينة وعرض عليه مفتاح المعارة وكلمة السر فيا لم يستعجب كانت العواقب وبالا.. يوسف ليس ندا لاصغر مقاطيع عائلة الرمادى وعليه ان لا يحاول ركوب الخيل والتظاهر بالقروسية وإلا فقصوه كالصرصار!..

حاولت رحاب ان تعثر عليه ولكن «تليفونه» المحمول لم يرد . فقد نسيه في سيارة رفيق . وكان هو في طريقه لفيلا لوران.. وحين شارب ناحية الشارع المتعامد على الكورنيش رأى السيارة نفسها سوداء طويلة . فحمة بسنه أبواب.. همس له رفيق حين شاهدها تخرج من مرآب الفندق لحظة انصرافهما . اتري هذه الليكوليس؟ انها سيارته المفضلة..

ماذا تفعل سيارة عبد الرحمن الرمادى امام فيلا الرجل الرقيق؟.

إلى حفل في بيتى لم أدعك إليه؟

لاحت على وجه هانى ابتسامة غاضبة تشبه إلى حد ما «تكشيرة» كلب أليف ثم استرخى في جلسته ووضع ساقا على ساق بشكل يشير فيه بالخذاء نحو الرمادى..

- هالة ياسيد عبد الرحمن! هالة هي التي دعنى وارسلت لى بطاقة باسمى مع زين العابدين . عاشقها ووالد الجنين الذى ينمو فى أحشائها!

اصفر وجه الرمادى وتدلّت شفته السفلى لكن عينيه ضاقتا وتجمعد ما بينهما وبين فوديه . بينما احس هانى بختقة قلب طامت من التوتر الذى أوجع معدته من لحظة اضطراره لاستقبال القاتل . ولابد أن الابتسامة التي افترشت وجهه قد آلت خصمه حتى النجاع ولكنها شحذت سكينه التي خباها في ثيابه..

.. وخرج صوته من قلب فارغ كقطبل أجوف..

- انت استاذ جامعة ويقولون انك من النوايغ ومستقبلك بعد زادهار! ولاشك انك تريد مواصلة حيائك ملا عشرات . وانصحك بأن يكفى خيرك شرك..

لم يدرك هانى انه حاصر الرجل بإهاتته ودفعه لكي يصل إلى احد الأقصى! وانه لم يدع له فرصة لمجرد ان يسحب بهدوء . واصاب الموقف عبد الرحمن عما يشبه الجنون . وتغنى لأول مرة ان يقتل بنفسه .. بيديه..! ولم يكن هانى قد اكتفى..

تأتى إلى بيتى مقتحماً مهددا وكأنت تمتلك البشر والمكان والزمان؟

وتظن انك قادر على الافلات؟ استطيع ان استدعى الشرطة
واتهمك بمحاولة قتلى است وزبائنيك هؤلاء.. ولكنى لن افعل..
سأستمع فقط بطردك.. ولكن قبل ان تخرج دعنى أبصق فى
وجهك!

نذير الطوفان:

وجده يوسف بعد ان غادر الرمادى مكوما حول نفسه فى ركن
الشرفة ذات القنديل الأخضر.. كان يرتعد ويتصبب عرقا . واسنانه
تصطك .

- ماذا بك؟ هل أدوك؟

- بل فعلتها أنا.. ثارت قليلا لذكرى الضحية!..

- ولكنك ترتعد.. والجو ليس باردا..

- غطنى يابوسف بأى شىء.. إنها نوبة. تعاودنى بين الحين والحين

كلما انفلت! الطبيب يقول انها نوع من الصرع!

«تعرف يا صاحبي؟.. أخوض فى المياه وأنا لا أجيد السباحة! أنا

أضعف من دفقة موج .. لكنى لا أحشى البحر.. ربما أغرق فى شبر

ماء وأغص بقطرة مطر لكنى اعرف كيف اقود سفيتى إلى الشيطان

المأمونة.. لولا انى ريان أحرق.. أغرق قاع سفيتى

- انت تهذى يامسكين!

- بل أراه يابوسف. الطوفان يقترب.. وقد رأيته اليوم فى عيني

صاحبك الرمادى..

١٠. خفافى منتصف الدائرة

أى مذر بالطوفان يراها الرجل يابوسف؟.. أحقا لاتعرف ولا ترى
ما يراه؟ ألا تسمع الهدير يترامى من أقصى العمق هسيسا فخريرا ولن
يلبث ان يصخب فى الغداة؟

فى الصدر تنقل الزعرات ولا تخرج مع الانفاس.. بل تسقط ألما فى
المعدة تكوى له الأمعاء والعودة من فيلا لورا الى بين دابر الحر
«هذه الليلة» ترسف فى أحلال الحزن..

لا يمكن ان نكون قد أحببت الرحل لهذه الدرجة وخلال تلك الأيام
القليلة! بل إنك أحسست أحيانا بكثير من الفور تجاهه! وداخلت عليه
حق وغضب فى بعض اللحظات . وفى لحظات أخرى تميت لو لم
تجمعك به مصادقة تلك الليلة! لماذا يبدو هكذا كأنه نساء محصن. لا
أحد يمكن ان يكون كذلك فاكتمال الخير وهم وتمام البراءة سراب ثم
ان هناك درجة خفية من درجات الادعاء والتظاهر نلمع أحيانا فتشى بأن
اعماق الرجل لاتخلو من احراش قد تقطعها الضواري..

ماذا بك الليلة؟. اتبحث عن تعة نلاشى تعاطفت مع هانى؟ تريد ان
تتنكر لما تجاوب له وتر فى صدرك حين رأيته مكوما ضعيفا يعالب
صرحه ومخاوفه وينذر بمجيء الطوفان؟ .

— لم أحزن طوال عمري كما حزنت الليلة «يا أبله باطه»!

تربعت عطيات الشفقى على الأريكة «الاستايولي» التى طلت فى مكانها أسفل الشباك السحري مند وعى يوسف وتعرف على مفردات المكان تغيرت مواضع المقولات وقطع الأثاث فى البيت أكثر من مرة بل تغيرت واستبدلت هى نفسها بقطع أحدث . وقبت الأريكة القديمة هناك أسفل الشباك العريض الذى يطل منه المجلس عليها ليرى النقاء الأفق بأعلى سرائ رأس التين.

للمطر فى ذاكرة يوسف صورة بهارية تسبح فى الشمس تصحبها صفارة الأذار من العارات اجوية قيل له فيما بعد ان هذا لا بد ان يكون قد حدث فى تلك النهارات الثلاث التعسة من الشهر السادس فى العام السابع والستين . حين أصيب «بالحصة» وأرقدوه على الأريكة فى رعاية أخته الكبرى عطيات التى أصبحت تمرور السنين سيدة الست الحقيقية باتفاق صمنى بن الجميع بعد حفوف الضوء تدرجيا فى عيون الأم جازية وتخليها العملى عن مسئولية ادارة المنزل..

— اسأل باطه..

حسمت الجملة القصيرة المقتضبة الأمر فذهب الجميع الى «باطه» وقعت الست «حازية» بالمشاركة الرمزية كأن تسرد ذكريات الأسره فى جلسات السمر وتشارك فى فص المازعات الروتينية بأسلوسها المفصل وهو البكاء عالنا واستمطار اللغات السماوية على كل من يعن الأم أو يتحاهل وحوود اخنة تحت قدميها ثم الخلود الى اجتماعات «الحيران» فى الشرعات وعلى الأسطح وتبادل أخبار الغرف المغلقة فى بيوت الدابر.

وحين تربعت باطه على الأريكة كانت تمارس سلطاتها المعترف بها — دبرنى يا أبله باطه!

وباطه هو اسم التذليل الذى كان يوسف أول من استخدمه حين بدأ ينطق الحروف.. تعثرت كلمة عطيات على لسانه فخرجت «باطه».. ولقبت هوى لدى الجميع فصارت اسمها الذى تنادى به ليس فقط داخل بيت الشفقى.. بل فى كل بيوت شارع دابر البحر.. واحد فقط ظل مصرا على ماداتها بعطيات.. ذلك هو العريب حسن. الشقيق الذى حل فى قلبها محل الأب بينما كان يوسف هو ابنها الذى لم تلده . واما هى الابهة الشكسة الشاردة . وما دويهم كان يمرر أفعها خفيفا لا يقيم . سيد المرسى وعلى الأحسن . لم يعودا من صلب البيت.. فالمرسى اعتزل الجميع داخل البيت مستقلا بحجرتيه المحاورتين لناب «السكة» فى الدور الأرضى وبزوجته وابنه الوحيد. والأحسن أخذها من قصيرها وابتعد عن اخى كله بمملكته الخاصة — أرى فى عينيك حزن العاشقين «يا ولد يا يوسف»..

— ليس للعشق نصيب فيما أعانيه الليلة يا أخت يوسف!..

حكى لها حكاية الرجل الرقيق والفتى الحطى وبت آل الرمادى.. وما حدث حتى انهيار هانى على اعتبار المساء وبوة صرعه وهذيانه المنذر بالطوفان!

— يخيك يا أحلى!.. ما الذى دفع بك الى «الفريق»؟

— ماذا أفعل يا أخت؟

«أراك قد فعلت يا يوسف! شهدت شهادة الحق فلم تساووم ولم تظلم. فلا أحد مقدره ان يحى عليك ملائمة.. أما صاحبك هذا

الذى تراه منساقا للجنون ويحزنك أمره فدعه لرب يتولاه.. واعد
إبعد يا يوسف.. اذهب لعملك فى الجزيرة التى تأكل منها العيش
واترك اسكندرية بمن فيها لمن فيها. مصيبتك «ياوله» أنك تنساق وراء
قلبك واتباع القلب ربما كان صوابا ولكنه مفعم بالخطر فالجراح
لا تندمل.. والزمن ليس طبيا كما نظن.. وها أنا كما ترانى.. جراحى
ما برحت تيزف ومازلت ألعقها حتى أدمستها أنا أقنات بدمائى
يا يوسف.. فابعد.. ولا تزدنى..
.. أجهشت باطه بالبكاء وانكفأت الى مهجعها.. وأطبق ليل!

معروفة الفجر الشاب

يتخمر قيظ النهار الصبى فى حواشى الليل ويتنظر على أديمها
للوروات من الدى المسكر أحلى لحظات اليوم وأجمل تهويمات
الحلم..
على الحسب تنرصع كحبيبات ألق برقى يومض ثم يسطىء ليلترد
مكانها السمات صبح موعود فى أحشاء الفجر ومن وعى الحسد
العائب يتسرب فى حنايا الخلايا المصطحة تحت قشرة الدماغ شريط
من صورة تندعى بلا انتظام ولكنها تتشكل فى خوف الفوضى
قرارا يوشك أن يولد فى شرفة قصر الرمادى وقفت هالة تواحه
شمس الغروب وتخلع علالة شفاهه تسقطها حتى وسطها قات
له
— اعرض صدرى للأشعة فوق البنفسجية فى شمس الساعة الأخيرة
للنهار..
تحمل ثدييها فى كفيها تلثم أحدهما لرين الضاحك. الذى يحس

ليحل هاتى محله وتربت على رأسه بخنو ثم تمسح دموعه التى
انزلت. ثم تساقطت على زهور يحملها فى يديه. وعبدالرحمن
الرمادى يصرخ من حديقة الشاطئ بلا صوت.. ويعبر بابا الى
سرداب مظلم ليخرج يوسف بعدها الى تلك الشرفة ذات القنديل
الأخضر.. وناسى تدعوه للاستلقاء معها ومع أم هاتى بينما
تراقهم رحاب ضاحكة وترمقه بنظرات داعرة وحين احتصته
نانسى أدرك أنه يحلم وساورته مشاعر الحية وعدم الاكمال
يفجر الصون من مكر معلق بمحنة الجامع فيوقظه لأن تزامن مع
انتهاء الحلم. ففى العادة لا توقظه أصوات الأذان لأن تكرارها اليومى
حولها مع صوت مرور الترام على القضبان الى ثوابت رتيبة
لاتفاحى.. ولاتدبه! أحس بأن الرطوبة تبلل الفراش فقفز منه الى
الحمام كانت المرة الأولى — ربما مد سنوات — التى يستيقظ فيها
ليلا.. وهو يعرف قياسا على السوابق أنه لن يستطيع النوم مرة
أخرى

اندفعت مياه «الدش» قوية باردة ليشهق فى اعتياد ثم يسلم نفسه حذر
تلك الدغدغة الناعمة عن التقاء الماء البارد بالجسد الحار وكان المؤذن
يردد فى إصرار أن الصلاة خير من النوم. تذكر يوسف لحظتها أنه لم
يزر ضريح المرسى أبو العباس منذ عامين تقريبا وأحزنه هذا لمعاطف
حميمة كان تربطه بالمسجد وبأولئى شقيق الاسكندرية وقرر أن يصلى
المسجد هناك!..

قرب المتصورة لمحج جالسا ييكى¹ هاله ان يرى حس العربى وقد
عسلت وجهه دموع تنساب بلا توقف وبعد ان هم بالاسراع نحوه

أحجم وقد أمره وأزع داخلني بأن يترك الرجل وشأنه.. لم يكن حس درويشا ولم يعرف عنه يوما اسرافا في التدين.. كان يصوم ويصلى على قدر الفريضة دور تطوع أو تريد وحين قيل له أن على الاحس قد حول الطابق الأرضي من عمارته الحديدية الى مسجد وأنه اطلق لحيته بعد ان أدى فريضة الحج «السياحى» مع زوجته أماره وعمه «روضة».. استسم حسن بقموص وعلق ساخرا.

— بفعلها الاحسن والاجر على قدر التبة والهدى من الله!

قرب باب المسجد المواجه للمحر.. جلس يوسف مترقبا طلوع الهاز وشحوب زرقة الفجر ونحوها الى ذلك اللون الليلكى يهت سعد برهه ليسود ألن الرماد كم أحب في طفولته ان يصحب اخاه خليل عبد البارى الشفقى الى صلاة العيد قبل الشروق وتلك الترييمات الشحبة لتكبيرات العيد في الكور الأصال تنكسر الأصواء في الأجفان . فتفتح العينين.. ثم تغمضان.. تأخذ تلك السنة من النوم ويركن رأسه على العمود البارد مواجه البحر ويمر بجانبه حس العريب فلا يرى أحدهما آحاه . «شئ يتخلق في عمق العمق باس الشفقى . لقد جمعت شطر المحراب وقررت ان تفعلها » لم يكن وحيا ذلك الذى طاف بإعنائه البسيرة قرب باب المرسى . كان إلحاحا داخليا يخرج من غمر الرهبة والتردد ليحلق حالة استئسال عنيده طدا تملككت الحمقى والشهداء..

طلب من راما كوما كامالا من القهوة المعلية وأغلق على نفسه د حجرة البرج وانكب على أوراقه.. وظل يكتب طول النهار . وفي المساء لقي رحاب عند «صوفى»..

— عيناك مثل كاسات الدم! ووجهك شاحب.. ماذا بك..؟

أخبرها انه لم يتم.. وأنه ظل يكتب طوال النهار..

«أتدريين ماذا كتبت؟.. القصة كاملة. بأدق تفاصيلها. حكاية الفتى الخطي مع بنت الرمادى. ومشهد مصرعه بالرؤية والمعرفة وأقول هانى الكردى بحذافيرها.. اترفين ماذا ينقصنى لأحقق سبق العصر والأوان شهادة أسعى إليها. وسأحصل عليها قبل ان أتقدم بموضوعي لرئيس التحرير..»

هل كان لساه ثقيلًا متلقما بفعل «المرتسينا» التى قدمتها لهما صوفى . أم هى قلة النوم؟.. أراح رأسه الى كتفها وهمس.. اليوم بارحاب.. النوم..

. اقتربت صوفى وانحنى على أذن رحاب تهمس لها ثم دست فى يدها المفتاح «لا أحد فى الشقة.. خذيه الى هناك»..

«أهو حلم الليلة الماضية يتكرر؟» لم يكن يوسف ثملا.. لكن احتياحى الى النوم كان يؤرجحه على حافة رجراجة بين الانتباه والفتوة . وفى ركن بعيد من الحجرة المحرمة داخل العقل الباطن كان يعرف ماذا يحدث «الآن» بينه وبين رحاب..

نقطة ساخنة على خط المساء المثالى

لن يعمر له رفيق أبدا ما استدركه اليه! «لم تكن هاك وسيلة اخرى سريعة يعرف بها عنوان وهاتف المقر الخاص لأسرة الرمادى — فلفق له تلك القصة عن ضرورة الاغ عبد الرحمن داشا بحطر ماحق وحماقة كبرى ينوى هانى الاقدام عليها»

.. أنه صوتها عبر الهاتف جافيا حذرا — ماذا تريد؟..

— اذا كان دم زين العابدين إمام معنى لك شيئا فدعيني القاك!
كان الأسلوب فحشا انشائيا كان يراهن على بقايا غضب يساورها
ونقمة ظلت تبحث عن قصاص . طلست منه ان يعطيها مهلة
وستصل هي به..

وفي الفندق ظل عمرو يراقبه والفضول يكاد يهتك به «ألسا
أصدقاء؟» لم لاتصارحنى « ولأول مرة عامله يوسف بقسوة مهينة
شريرة «عجبا.. تريد ان اشاركك ثمرة جهدى واكشف لك
موضوعى؟» فازور عنه زميله مجروحاً.. وساعتها أناه الرنين المنتظر
كانت هي . حددت له المكان وطلبت منه ان ينتظرها وستوافيه بعد
ساعة!

. تدت وهي تذلّف من باب مشرب ذلك الفندق البعيد الرابض
على حافة الصحراء — فتاة أخرى غير تلك التي رآه ليلة عيد
ميلادها.. أبدا لم تكن هي..! تحولت حفيذة الرمادى الكبير الى ظل
برسّف فى كآبة ضافية . نحتت بشكل لا يصدق . وعارت العيان فى
المحاجر معتمة مظفأة الا من نظرة نفلت فى لحظات معينها بارقة بالم
حاقد وغضب مقيم لبقاربه تسامح او غفران.. وقبل ان تستقر فى
مجلسها قرأت عينيه..

— تعجبين من سقمى ا صحتى هي العجب!
لم يفهم.. وتوافاه منتهما فأوضحت بانتصاب «بيت من قصيدة يغنى
فيها وديع الصافى مع فيروز.» تذكر الأغنية فاعتذر فى خجل . يسما
ابتسمت هالة فى غير مراوة
— تعرف أنتى حامل؟..

أدله وأربكه فى أن ان تتعامل معه بهذا الاعتياد والزلة رغم ان كل
ما بينهما مكالمة هانفية . ولقاء سابق فى ليلة القمر المخوق يذكّره هو
ولا تتعرف هي على ملامح تذكرها منه «لعلها كانت تنتظر! لمسألة
النسبة اليها انك صحفى.. وهي تريد صحفيا»..
— الخين فى احشائى هو ابن زين العابدين! . وحاسر يعرف الكل
يعرفون..

وشرت ضحككتها العصبية فجأة لتسأله متجهمة: ماذا تريد؟
شرح لها ما يريد.. ثم ضغط أمامها على زر تشغيل المسجل . وانساب
كلامها متصاعدا كالتيار حين يتحرك أولا على أرض مستوية ثم يصل
الى قرب المسقط فتضاعف سرعته ويهدر ثم يندفق منفجرا وهو
يسقط حيث لا حساب ولا حذر ولا عاصم من الفرق!..

اشتعلت الأمسية بعاصفة النار! لم يعد جو القاهرة وحده مصدرا
للهبوب واسهار الانفاس.. حين انزوى يوسف فى حجرته وراح يفرغ
محتويات الشريط.. آلاف المقاط الميكرو سكوبية تحت جلده تتر ونط
كأنها مولدات كهربائية «رياه . أيمكن ان يكون الأمر حقيقيا الى
هذا الحد. أم أنه مجرد حلم يداعه عند حافة الوعي؟ هل التقى
حقا بحفيده عبدالرحمن الرمادى ؟ وهل هي حقا صاحبة الصوت
المسجل على شريطين كاملين ؟ وهل ذكرت كل هذا فعلا؟ ألا
تجدعه اداه؟ ألا يمكن ان يكون سادرا فى الوهم؟ كان يسمع عن
يقصر نفسه ليقى اذا كان نائما.. لكن.. لا.. انه فى كامل وعيه
ويقلته وهاهو القلم بين اصابعه يتحرك محموما على الورق ولدة
ساعات طالّت حتى انتصفت الليلة.. خرج بعدها الى «الرف»..

نسمات الخريف الهاربة من ربقة الاحتناق في مدينة لم تعد تنفّس
انقطع عنها الأوكسجين فازرق جلدُها تنلّكاً عبر مسارات سرية
لكها تصل في النهاية كهمة اعتذار.

— أقف الآن يا عمر على عتبة قد تنقلني الخطوة بعدها الى محد
يرفعني للأعلى أو تسقطني في بئر بلا قلاع ولا نسألني عن
تفاصيل. فقط أشر على ما أفعل. هل اذهب بقصتي الى فوزي
الشماع أم اقدمها الى منافسه الآخر في دوائر القوة الصحفية؟

ثار عمرو والكاشف بلا مرر «ماذا تخفي؟» انها نفس القصة! حدوده
فتاك الخطي وبنت الرمادي على من تنلو مزاميرك القديمة الجوفاء؟
العتبة التي تقف عليها سنغوص في رمال متحركة لانعرف اسرارها
بعدا!.. اذهب بموضوعك الى الشماع أو الى الحن الأزرق أو اسرح
به في سوق «الكاتب» الذي تسميه دوائر القوة الصحفية.. لعل المحد
الذي يرفعك الى الأعلى يتظرك هناك على سن خازوق» كان مراح
الكاشف عكراً— وأبه في الفترة الأخيرة— وعن ليوسف الذي يحلم
بالآتي ان يشير غيظه فهمس في رصاصة..

— اغفر لهم يا أبناه فإنهم حمقى لا يفقهون!..

— نعم ياروح خالتك؟ هل احتلط عليك الأمر فصرت عيسى بدلا
من يوسف؟ اشخر لك؟

صحك يوسف وصالحه وأحسره أنه يود ان يتفرج الليلة على جلسة
«البوكر» كانت مكافآته لنفسه قليلة ومتواضعة.. ولم يرد الليلة ان
يختلي بنفسه.. حتى لا يواجه ما فر منه مغمسا في اعداد تحقيقه
الصحفي!.. كان ما حدث بينه وبين رحاب في بيت صوفي في كارثة

كل المقاييس وهو لا يريد ان يناقشه ولو حقبة— فماذا يمكن ان يفعل
حيال بكائها وانهارها والقصة المرعبة التي روتها له؟ وما الحال التي
تنتهي اليها مشاعره اذا فكر في الأمر؟.

حول المائدة المستديرة المعدة خصيصاً بقطعة الخوخ الأحمر. وعلب
«الفيس» ومجموعات أوراق اللعب الجديدة.. النفوا أربعة وحاسمهم
معم الصرفي بينما اختار يوسف مقعدا حارج الدائرة وفي المساحة
الفاصلة بين كسفي عمرو ومنعم لتسيح له مراقبة أوراقهما. كان
يستمتع بمراقبة هذه اللعبة بالذات ويشعف متابعه الحالة الانصالية
لدى الجميع وقد حرص دائما ان يتعد في جلسته عن آخرين يدون
نزمهم واعتراضهم على ان يراقب أوراقهم شحصا حارج اللعبة..
مسألة تشاؤم ومداعبة للخط كما يقولون!.

ويقولون ايضا ان لاعب «البوكر» الماهر هو الذي يتحول وجهه الى
قناع حامد لايشي بأي تعبير ولايمس عن أى انفعال ليستطيع ان يمارس
به حذاع اللاعبين الآخرين أما اللاعب الفذ فهو الذي يتفوق في
خداعه الى درجة ايهام منافسيه بأوراق ليست في يده.

ولكنك تملك الأوراق الراححة فعلا ياس الشفقي! معك «كت
روبال».. مجموعة الفوز الكاسح الذي لايمكن تحديه

مال رأسه على ظهر المقعد وقد غلبه النعاس.. ومن بين جفنيه خايلته
صورة فوزي الشماع وقد راعه مايقرا!..

انتصاف دائرة النهار

ولعمري الشماع كلمات تترع في صدارة أقواله الماثورة التي يلقيها
في كل مناسبة للمحورين والصحفيين في جريدته! يقول لا فض فوه

ان نشوب الحرب العالمية الثالثة أو شروق الشمس من الغرب احبار لا تبرر اقتحام مكتبة - قدس الاقداس - بدون موعد سابق او استدعاء شخصي منه.. لهذا فقد ظل فاغرا فاه منصعفا.. وهو يفاحا اندفاع يوسف الشغفي من باب السكرتارية ليصبح أمام مكتسه يكاد يلاصقه وخلفه يدفع الحرس الشخصى مع طاقم السكرتارية بأجمعه..

- طوال ساعات الصباح وأنا أحاول مقابلتك بالطريق الرسمي لكنهم أصموا أذاتهم دوى فلم أجد بدا عن اقتحام محرابك ولم أكن لأفعل لولا ان الأمر خطير.. تتجاوز خطورته كل خيال..

. أحسن فوزى الشماخ لأول مرة بالارتباك شيء ما فى بهجة هذا

«الولد» يجمع من التكيل به وأصابه هذا تركة التقطها يوسف - قبله فى قضية عبدالرحمن الرمادى!

وساد صمت بدا فيه هسيس المكيف كأنه الصبح بعينه . وتحدث نظرة الشماخ حلف نظارته السمكة . وعبرها ظل رمادى مرتجف ولكن أصابعه أصدرت أمرا فهمه الآخرون على الفور . وحين أعاد الباب.. لم ينتظر يوسف.. ألقى بأوراق التحقيق على المكتب - اقرأ بنفسك ياسيدى!..

حلج فوزى نظارته وراح يمسحها وهو يحرق فى وجهه يوسف الذى نصبب عرقا رغم برودة التكييف.. وبدا وجه الرجل بدون نظارته مختلفا تماما! فحول عينيه تلك الجيوب التى تشير الى عدة من الكيد واتساع المحجرين يرسم صورة مآجن قديم.. أما ما تروح « النظرة فهو الملل المشوب بالعتاب الغاصب..

- ماذا أقرأ يا عقرى؟ اترك قد استنطعت ان تصع الرجل فى حيك بهذه السرعة؟.. م الذى فعلت على وجه التحديد.. خبرنا متى نستفيد من بركاتك وتتبع خطاك!

- لم تفهم انقصد على حقيقته يا اسناد . أنا لم أكتب موضوعا دعائيا للرجل.. بل اعتقد انه سيحجن جنونه حين قرأه..

ثارت الشكوك فى صدر الشماخ وتناول بطارية القراءة وبأصابع متوترة عصبية تناول الأوراق . لم يكن فوزى الشماخ فى بداياته صحفيا رديئا ولم يكن رجلا سيئا . كان فقط كيانا قابلا للتشكل على أى صورة تحتمها «الظروف» . كان فى العهد الشمولى من صحفى الدولة المرسى عنهم فى مكاتب الاتحاد الاشتراكى . وكان محسونا على واحد من الأماء المقربين لعبدالناصر شخصيا . وفى عنوان ولاية السادات كان من بين طانة المرديد وجعل من تاريخ قديم

عمل فيه بمكتب السادات حين تولى أمر الصحافة لافتة يزدان بها حبيه . ثم جاء العهد الحديد فأصبح بعد رحلته الشهيرة الى باريس وأدى حلالها خدمات حلية للدولة واحدا من كبار الصحفيين الذين يحطون قمم أهم الدور الصحفية . ولا يدري أحد متى بدأت الهمسات تنشأ سيرة الرجل . وعلاقته وارتباطاته الوثيقة مع كبار رجال المال والاقتصاد . وحين ارتفعت أصوات الهمسات لنصيح لفظا يصلى الأسماع بقى امر واحد لا يحتلف عليه أعداؤه وأصدقائه..

- هو صحفى «عقر» و«جورنالى حريف»

ولاشك ان الأمر بدا مجبرا هذه المرة فوزى يعيد قراءة التحقيق

للمرة الثالثة وهو يغالب انفعاله الذى ظهر جلبا لعينى يوسف الذى راقبه متابعا دون ان تطرف له عين.

وفحاة أراح الرجل الأوراق بكلتا يديه حتى القاهها ام حذاء يوسف المائل أمام المكتب كالمثال..

— ماهذا الهراء الذى سودت به الصفحات وجئتى به إليها الناهة؟
«تفكيرك» موضوعا هكذا وبكل صفاقة وبدون اثبات او توثيق للمصدر؟

كان يوسف يكاد يوقن بأن فوزى سيقول ويسأل . ويكاد نفس الحروف ان يستدل على صدق حديثه.. وكان مستعدا..

من جيبه أخرج شريط الكاسيت ولوح به أمام عينى الشماع!

— أتعرف ماهذا باريس؟..

— أراه جيدا فلست أعمى..

— انه اعترافات بنت الرمادى . كاملة . حتى الثرثرة وهمسات ما كان

يجرى بين جدها وبين خلسائه. ونفاصيل تحالفاته واتصافاته واسماء من وضعوا فى كثوف نعيمه الأرضى..

.. اقترب يوسف من المكتب.. تحطمت كل الحواجز.. وتلاشت الهالات.

— هى نسخة مهداة اليك ياسيدى.. لتعيد سماعها مرة بعد المرة وعدا سأرى تأثيرك الحاسمة على صدر الصفحة الأولى «تنشر»
اليس كذلك!

.. ومرت سحابة اليوم.. وفوزى ملازم مكتبه.. أمر بقطع كل الاتصالات ومنع أى كان من الدخول..

.. وراح مرة بعد مرة.. يسمع ويعيد سماع حالة لرمادى..

«المحوبة! لو ان جدها عبدالرحمن هو الشيطان بعينه لكانت أرفق به من صفاته التى ذكرها بحدة حارحة.. ولماذا أفشت كل ماتدفقت به من أسرار.

ما الذى تفعله الآن يا شماع؟.. وأى عاصفة تخلق فى أفقت؟! هذا الولد يوسف يحتفظ دوما شك بنسحة أصلية من أقوال الفتاة! والتحقق بهذا الشكل قبيلة هائلة لا يمكنك ان تتجاهله ولو ذهب به الفتى الى واشنطن بوست بحلالة قدرها لنشرته وجعلته مليونيرا أى واشنطن بوست يافوزى؟ عجزت وعحرت وكل بصرك كما كنت حاسنك القديمة لانزع الفتى بعلت الى حيث تتناوشه الأضواء والاعراءات.. ادفع به ضعه فى فوهة المدفع «وأطلق سبانا طويلا متنوعا.. قال.. أم أى اعتبار آخر..»

أنشطة الدائرة

فى الهاتف حاء صوت هانى حائرا ضعيفا يسأل. أحقا ما تقول؟.. وأكد له بقوة . «وأمهلى الرجل الى الغد.. ولعلك تقرأه فى نسخة اليوم الثالث».. ساد صمت طويل حتى طن كل مسهما ان صاحبه قد ابهى المكالمه..

فى الاسكندرية كان هانى راقدا فى فراشه يعانى من حمى هاجمته صباح اليوم التالى وفى فندق وسط المدينة كان يوسف عاكما على نقل نسخ أخرى من شريط هالة..

أما فى مكتبه فقد توصل فوزى الشماع الى ما ظله حلا عقريا. سبأمر سبشر التحقيق. فلا مناص ولايوجد صحفى بقيت لديه دوة

من احترام النفس وحب المهنة يمكنه ان يتجاهل مثل هذه الحظوة
وفي الوقت نفسه يمكنه تأمين جبهة الرجل الكبير..
بذت له الفكرة براءة قادرة على حل الاشكال. ولم يضيع وقتا يعد
ثوان رد عليه الرمادي.. وعندي ما أريد ان تسمعه.. والأمر خطيرا
— يمكنني ان اسمعه على الهاتف..
— هاهو..

ألا تعلم أيها الصحفي الكبير النابه أنك فعلت أمرا اذا؟.. ألم يساورك
الشك لحظة في أنك تدوس شرف مهنتك بقدميك؟..
هاجمه الخاطر كلدغة ثعبان جعلته يقفز في مكانه «لعلك أيها
الصحفي النابه الكبير.. قد أصدرت الآن حكما بالإعدام على حالة
حسين الرمادي.. ألم تفعل؟»

«دوائر الحصار»

مدار الشمس العجوز

حين رأت هالة فوزى الشماع يغادر مكتب الرمادى الكبير خفقت لى صدرها دقة طربه ادركت ان يوسف الشفقى قد سدد الضربة وأن الشماع هرع للجد ينذره .. وحين خرج الرمادى الى حيث تجلس رآته شاحبا متهدل الكتفين ينوء بأحماله القديمة وكأنها لم تسقط الا اللحظة. لم تره طوال عمرها مثلما تراه الآن.. مثيرا للشفقة والرعب معا.

— لماذا فعلت هذا؟..

بدا صوته وكأنه يصدر عن شخص آخر.. بعيد.. خلف الجدران.. أرادت ان تضحك فلم تستطع..

— الشماع دمية فى يدك! إمنعه من الشر..

جلس على مقعد قريب وبدا كصديق يريد أن يشاور ويلتمس النصيحة..

— لا يستطيع! الفتى ابن الشفقى وثق موضوعه ودعمه بتسجيلات صوته .. وإذا رفض الشماع أن ينشر له فسيجد آخرين يتلهفون ويجزلون له العطاء!..

صمت لحظة حتى بدا وكأنه راح فى اغفائه أو أنفصل عن وعيه
وحين أيقنت أنه سيطل صامتا وهمت بأن تغادره هتف بالسؤال مرة
أخرى: لماذا فعلت هذا؟

— وفاء لحق الرجل الذى أحببت!

— نتقمين للسافل الذى استباحك والذى فيك بدرته سفاحا؟

— تغضب للاخلاق ياشيخ الصالحين؟ تتحدث عن الاستباحة
وتنسى ماوطأت من أرواح واجساد وأعراص؟ تتحدث عن السماح
وأنت تسافح الشياطين ليلا وتخاذلهم نهارا؟

.. رفض الرجل ان يصدق ما سمعه.. وقرئ ذهنه ابها نهذى أو
تقرأ فصلا فى كتاب.. فبدا رده وكأنه نطق علوى يفارق نخوم
الوعى. (لا استطيع أن أقتلك! ولا استطيع ان امسك بشر انت
لم تكونى أبدا حفيذة.. كنت رهزنى الوحيدة التى تبرعمت
واشرقت فى مساتى الغارب.. كنت البنت التى تمنيتها فلم تحي
فكرت أخويها. حتى إذا انجبها اصغرها نال مغفرتى لمولده
كان مولدا تمسا.. وكان..)

كان الرمادى يسبح فى ركود بركته الامة. ويضرب بالمحذاف
لتتفاخر الاسماك الميتة.. خيل لهالة أنه لا يد يعانى من خرف ثمار
عاما تهذل على كتفيه (أبوكم وعمكم لم يكونا من صلبى! فانا
عقيم. لكهما ولدا فى بيتى فأصبحا ولدى الحياة فى المقول
سند الملكية.. هاهنا.. والعرق دساس.. ترين الآن جاسر ابن
عمك. ذلك الغل يرحب بأن يتزوجك وفى بطنك جنين عشيقك
ويرحب بأن ينسب اليه هو! اتعرفين؟ قد بطن الناس انه نوع من

الحسة والعدم الرحولة. ولكنه ظن أحق فهذا التسامى فوق
مشاعر العيرة والحقد وشهوته التملك هو قمة السمو. هو انسلخ
عن غريزة الحيوان واتحاد مع شفافية الروح واعتناق الجوهر. فى
شبابى روح اعدائى إشاعة تقول أنني أصادق عشاق زوجتى. وأنها
تضاجعهم فى وجودى! والواقع أنني لم أعن كثيرا بتكديهم.
وفعلت ما هو أهم وأجدى. أعريت زوجاتهم جميعا ثم كونت
منهن شبكة دعارة. والتقطت لهن صورا وأفلاما خلال ممارساتهن
الفراشية وبها سحقت هاماتهم ودعت أنوفهم فى الرغام.. هاهنا
.. هاهنا)

هل نام عبدالرحمن الرمادى أثناء سباحته فى بركة ذكريانه؟
نعم أخذته سنة من النوم.. ترك فيها تيار ذكرياته ينداح على لسانه
ويختلط فيه الضحك بالحكى بالغطيط. وتفرغ للتفكير فيما يجب
ان يفعل؟..

«فلنكن هذه تحفك الاخيرة يا عبدالرحمن.. فلنكن قمة ابداعك.
على حبهات ثلاث سترسل قواتك الضاربة. أما الخطوة الميدانية
فلا بد أن تنضحها على نار هادئة.. ثم قليلا. ثم انهض لتناول
كأس الشفق.. ثم وجبة المساء. وفى السهرة تلتقى بحوارى
العشاء الاخيرة».

. دعت هالة من حملوا الرجل الى فراشة وتحت المقعد الذى
غادره رأت بركة صغيرة من البول تفوح منها رائحة جيفة ممتة!
.. كانت هالة تشم دائما روائح عربية فى كل بيوت الرمادية! رعم
الطور التى ترش فى الأرجاء ليل نهار.. فمعها تتسلل دائما تلك

السحابات الثقيلة تكاد تلمسها الانامل لروائح ملابس داخلية بصمغها العرق وافرات تسلحات الخلد في خوف الثنيات الدقيقة. (في سن الثانية عشرة فعلها معها ذلك الرجل الذي حاءوا به ليعلمها البياو كان يحيطها دائما بذراعيه حين ينظم لها وضع اصابعها على مفاتيح العزف وكان يلتصق بها وتحس بأفاسه اللاهنة اللاهية تلسع خديها ورقنتها يسما يرتطم عصوه بعجبرنها في إجاح. حتى كان ذلك المساء الذي كانت ترتجف فيه كل أامة في جسد الرجل وتخرج من بين شفثيه فقاعات لبنية ثم يفتح ازرار سروالة.. كانت المرة الاولى التي ترى فيها «عضو» رجل مكتمل. وفزعت لكن فصولها غلبها.. ثم شاعت في الخو تلك الرائحة التي ركمت انفها كخمار يخرج من السروال المفتوح (عرفت فيما بعد ان تراكم السائل المنوي دون تعبير السروال مع تسلحات ماير الصخدين تنتج هذه الرائحة) وتقيأت هالة يومها والتصقت بأفها تلك الرائحة فلم تنج منها الا خارج بيوت الرمادي ا وكم كرهت تلك البيوت وكرهت كل قاطنيها..

تحسست بظها في حو أحست بذقن زين تنغرس في كفها كما كان يفعل حين يسلسل ليأحسها ويمرغ وجهه في شعرها ويداعب بشفثيه شحمة أدها فتتنقص وتستدير اليه لتلتصق بأحصابه وتهمس قبل أن تلقمه شفثيها «أعصرى حتى تحيلنى الى شراب ذائب في فمك ينسكب من شديقك الى عققك الى صدرك دعى اتحلل مسامك.. أصبح بعضا من نسيح أديمك!.. عد يازين. لا تكن وهما.. لا تبتخر حلما.. فعضك يسكننى.. وماؤك روى ارضى

وعشى يمو مخضرا. ويتفرع في شرايين يورق ويزهر ثم يثمر.. آه.. كم أخشى يا حبيبي أن يفعلوها قبل نضوح الثمرة.. فتعطب وتوت قمل ان تنفصل عن فرعها.. وبكت هالة.. كان يساورها ذلك الهاجس الذي لمحت بدره في عيون الرمادى.. هاجس يحيرها بأنها حين تحدثت مع يوسف الشفقى قد حدثت حبلا يمكنه ان يشق الرجل العجوز.. ولكنه لابد أن يلتف اولا حول عنقها!

وحول سريره. كانوا قد جففوا بلله وعبروا ثيابه وضمحوه بكثير من العطر. والتفوا حوله. ينتظرون البطق السامى (لم يكن فيهم من أحب هذا الشيطان العجوز حقاً. وليس منهم من لايتمنى أن يشهد مكمما ملثما يساق الى قسره. ولكمهم يخضعون لعبيد اورثهم أحيال الرق والنحاسة ذلك الاستسلام القدرى لنزوة النحاس وغلمة السيد).

راقوا يؤذى العينين يدوران مليئين بحياة تنافر في فظاظه فاقعة مع مايحيط بهما من جفون منهذلة وحلد ميت مترهل يكاد يتحلله دوده حتى قبل ان يتحلل..

تأدوا حركة شفتين يحرح منهما الكلام واضحا جذلا كأن شابا فتيا يحسنى في حوف الشيخ الفانى! «هانة تزوج جاسر غدا» تسمعون؟ غدا وليس بعد غدا.. في بعد الغد يسافران ليقبما في أى مكان العادم لايعودان منه الا بأمرى أما بعد. هناك ثلاثة يجب ان تعدوا لكل منهم سكة من سكك الدامة حيث لاعودة ابو الولد في عسريال وذلك المختب في لوران.. ثم الصحافى ابن الشفقى في داير البحر..»

خط الاستواء الكاذب

نظر فوزى الشماع الى الصفحة التى حوت «تحقيق يوسف الشفقى عن فاجعة الشاطئ المخملى. عفاريت مارينا تحسف القمر وتفرق الفتى العاشق.. تفاصيل الجريمة على ألسنة الضحايا» وساوره الاكتئاب وهو يتأمل الصور الثلاث.. زين.. مدرس الجامعة الصريع وهالة حفيدة الرمادى. وهانى.. استاذ الجامعة وشاهد العيان!

كانت «البروفة». وأعضاء «الديسك» الذين استدعاهم على عجل يتبادلون النظر فى صمت وهما يتابعون الشماع أثناء اكتنابه يضع قرص فوار فى كأس الماء ثم يحرعه وينهض ليقتف بجوار نافذة العريضة المظلة على قمم المانى فى الشوارع المحيطة يغلفها ذلك الضباب الترابى الكالح.. وخط النيل يبدو كما كان دائما.. رازحا تحت ثقل مجهول.. يعبى فوزى بناطريه عبر النافذة وقد تقطب جبينه فبدا اكبر سنا مما هو بسنوات عديدة.. ثم استدار اليهم بوجه مرهق ونظرة كابية:

«اطيعوا! بالصور كما هى..»

كان يعرف انه رغما عنه قد خسر الرمادى الى الابد. وقد قرأه فى الهاتف المانشيتات.. وأستمع الى سبابه ولعناته وتهديده بأنه سينسفه وينسف معه الصحيفة بأكملها ان هو سمح بنشر صورة الفتاة!

«حاولت ياباشا ان امنع الصورة.. لكن الشفقى معه موافقة كتابية من حفيدتك على نشر صورتها واسمها بالكامل فكيف لى وأنا من

أنا فى عالم الصحافة فى البلد اتورط فى خطأ مهنى جسيم وامنع الصورة التى توثق التحقيق وتجعل منه تلك القنبلة؟»

سبه الرمادى بلفظ مقدع تناول امه فاضطره الى الرد. ابهارت الدنيا واطبق الطوفان والولد المافىون يوسف يختال متشبها كالطاووس!.. حسنا.. لن نهنا بما فعلت يابى الشفقى! نظن انك تحتفى بما سجلته على الشريط.. سوف ترى.. ومع ذلك..»

لايمكث الشماع نفسه من اعجاب دفين بالولد.. «لو افلت بها فسيكون صحفياً له شأنه..» ومقه ينظره يتجاور فيها الغضب والاشفاق ثم وقع له على إذن بمكافأة استثنائية مجزية!.. وعند محطة «السور جيت» ودعه عمرو.. كان هابساً..

— لعلك لم تزح الحجر عن حجور الافاعى يا يوسف!

— أرجو ان اكون قد فعلت يا صاحبي! أبحزنك ذلك؟..

— تعلم أسي احبك! وصديقك من صدقت.. سأخاطر بظن قد يخالط وبصورنى لديك حاسدا او شائنا. وأقول لك أنك ترقص الآن على كف عفريت أخرحته من القمقم.. تظن انك حققت نصراً صحفياً مؤزراً يصعبك فى مقدمة الكبار.. ربما. ولكنى أخشى ان لا يطول عمر الانتصار الرمادى واصرايه ياشفقى ليسوا من عوام المحرمين وليسوا مجرد أسرة نافذة الجاه قوية السلطة والنفوذ انهم «الوقت» و«النظام» و«القانون». مثلت قوة لا يصاهيه منافس.. فاحذر لنفسك ولكل ضالع معك!

.. الحافلة السريعة تنهب المساحة السوداء وبداحلها يعرض على «الفيديو» فيلم يمتلئ مشاهد الضرب ومعارك العصايات.. أراح

يوسف رأسه لظهر المقعد وحاول ان ينام .. تذكر اخر ماجرى من حوار بينه وبين الشماع ..
- أريد ان اتابع الحملة!

ابتسم الرجل القديم تلك الابتسامة التي تسمر عن اسان صناعية منتظمة شديدة البياض وحذجه بطريقة عابثة كأنها صمعة مزاح. بل خيل ليوسف ساعتها انه يرقص له حاجبيه:
- اذا تركوك تكتب فسوف انشرا

.. من هم يا شماع؟ .. من هم ياعمرو؟ .. أحقا لاتعرفهم يابن الشفقى؟.. انهم «الوقت» و«النظام» .. «القانون».
أى سر فى التحديد الثلاثى؟ الحرية . الاخاء والمساواة! . الحق .. والخير .. والجمال .. الله الوطن .. الملك! الاتحاد .. والنظام والعمل .. حرية واشتراكية ووحدة .. الوقت .. والنظام والقانون! أكان الرقم المقدس ثلاثة؟ . وكان الشكل المقدس هو المثلث؟ والمثلث هو الهرم! وكان قبل الهرم اورريس وايزيس وحورس ..

العدل يا وزير العظيم يا صاحب مصبة القضاء هؤلاء اولادك ينتظرون حكمك لتكون فى الأرض حياة . فاقم محكمتك واتصب ميزانك!

هرب الاسباط بكتاب الموتى . ولكنه سقط منهم فى لجة «حانى» فقادهم كاهن آتون الهارب من نل العمارية بألواح الشمس ليصنع لهم الشريعة! نهويجات العروب تحسد لك احلام القبلولة يابوست .. حيث تمثلت آخر تجليات ذهنك المكدود فى ترنيمات الشماسية

المعد لمريم .. ويسوع .. والاب رأس الثالث . وفى الكمان البشرى المعروف على حجرة الشيوخ رفعت فى مغربية رمضان «ابا رسول ربك اليك لأهبك غلاماً زكياً» .. قالت .. و ... ينطلق مدفع الافطار .

تنطقى الشمس فى الملاحظات وتتكسر الغفوة فى أحقان يوسف ويسرى حذر يشويه الألم فى ساقيه وعصديه آثار ليلتين كاملتين بلانوم

سمع بوق السيارة قبل ان يصع نفسه فى التاكسى والتفت ليحد رحاب فى سيارتها تشير له مستدعية .. (من اخبرها بقدمه؟)
- رفيق قلب عليك الدنيا . وحين توصل احيرا لرميلك عمرو فى نذلك بالقاهرة احبره أنك تستصل فى حافلة السانعة والصف .
قد ارسلنى اليك لآخذك الى كنيته المنتره ..
- ولماذا لم يأت هو ؟

- ربما كنت فى رأيه من تستطيع اقناعك بالانصات اليه!
. حيناك يابوسف حمراوان بلون الدم .. وهالات السواد حولهما .. الشحوب يصغ اديم وجهك . ماذا بك؟ .. يقول رفيق انك رنكت اكبر حمافة فى حياتك ارانى ذلك التحقيق المشهور باسمك عن حادثة مارينا! .. ويبدو الامر خطرا . سمعت منه ومن ابى الكثير عن جسروت آل الرمادى! حبيبي .. لا اريد ان يصيبك مكروه»

.. النصف الاخير من ايلول فى الاسكندرية! .. وطريق الكورنيش قد خلا منذ ليال الا من اسرراب كظيور المساء .. تنزلق على حافة

فريق يعطره الشحس. ورائحة اليود المشيع بملوحة الاسماك الطارحة تتماوج في دفقات السمات المتسارعة تثير تحت اودية المواسم المختلطة نوعا من «رودة» خاصة تلتع بلا قسوة. وداحل حدائق القصر طلب منها ان تتوقف بالسيارة في معطف الربوة وحين فعلت.. همس يرجوها.. دعيني اغفو على صدرك دقائق معدودة.. وأحتوته بزرعها.. تريح رأسه على نهديها.. وأناه صوت عبدالوهاب من زم لم يشهده «عند مجرى العبير من نهديك» والعبير مسكر.. وطرف اناملها يلامس شفتيه فيتمتم أحبك وتغوررق عيناه.. ويذكر نزار «خبأت رأسى عنده وكأنى» يام الطفل فيه. ونصحو الامومة فيها.. وتحمل ازرار قميصها.. تحي حمالة النهدي تخرج الكرة البيضاء والمكبترية وتسلمها لشفتيه..

.. حين ولدته الحاجة جازية لم يحن له ثدياها. دخل عليها واحد من اشقاء زوجها «فكبسها» واحبس اللبن في ضرعها. لم يذق مه يوسف الا حلى قطرة واحدة.. واراضته خالته «رئيسة» على ابنتها «شوق». رضعات مشبعات كثيرة فحرمته عليه. وأورثته تلك الحسرة التي تساورت كلما لقي شوق ورأى قوامها الذي خرطه خراط النيات فأبدع تكوينه. قبلها مرة عابثا فهمست «ليتك مت جوعا ولم تواخنى فى الرضاع». فلم ينفرد بها بعدها.

الدائرة خط منحنى

بحرق رفيق سيجارته العاشرة خلال الساعة الاولى التي قصاها

يسب ويلعن «أبوخاش» ابن الشفقى الاحمق الذى يعجرى بالمشوار نحو الدمار. وحين توخلت رحاب ثار وطلب منها ان تتركه مع صديقه و«تعور» فى ستين داهية. فردت له الصباح صاعين وقبلت يوسف امامه فى شفتيه.. ثم انصرفت.

اعرف انها تام معك فلست اعمى ولم أك يوما ساذحا.. ولكن هذا حساب اخر ابقيه لما بعد.. المهم الآن هو استدراك الخطأ ومع الكارثة! انعرف ماهى مشكلتى معك؟ أننى احبك واعترك اخى الذى لم تلده امى.. احمل نفسى مسئوليتك رغما عن ارادتى وارادتك.. لذا أريد ان اتفذك! فلتنحليع ثوب البطولة الزائفة والاكسوك به.. ولتنسبه الى الحقائق الصلبة التى تحيط بك! ماحتصار يابن الشفقى.. لست ندا لهؤلاء الغيلان الذين لن يتوانوا عن ذحك فى الصباح وسلقك فى الظهير والنهامك على العشاء! نعم لن يستغرق الخلاص من صداعك لديهم اكثر من يوم! لقد لظمت صدغى كالنساء حين قرأت الصحيفة. وتبولت فى لباسى حين سمعت صوت حسين الرمادى فى التليفون مشحونا بالوعيد والبعضاء ولايدع املا باقيا فى حيائك. هم يملهونك حتى موعد صدور العدد الجديد فى الاسبوع القادم كما وعدت قراءك. فإذا خلا من المقال الموعد وامتنتع عن تسليم الشريط المسجلة عليه اقوال هالة الرمادى للشرطة واليابة. فقد اشترت عمرك. ليس هذا فقط. فهناك وعد اصمته انا تنعويضك عن خبطتك الصحيفة التى لم تكتمل بصحيفة اخرى تملكها من بابها.. وتكون صاحبها وماشرها ورئيس تحريرها وتأتيك منها حصيلة اعلانات تجعلك

مليونيرا حلال عامين او ثلاث.. هل تسمعنى يابوسف؟ مالك؟ .
يخرب بيتك .. هل تمث؟

.. كلا .. لم ينم يوسف .. استسلم فقط لطنين النحل فى أذنيه..
تحول كل كلام رفيق اخوينى الى طنين . رغم انه فهم واستوعب
كل تفاصيل العرض.

من لى تلك السدوية العرافة التى قرأت كف الفتى الحسنى ليلة
اختناق القمر؟ .. اريد من تخترق عيناه استار الظلمة وحبوب
الغيث لترى عنى ايامى الآتية.. اريد من يجيب لى على السؤال
الدعز اكانت خسفة القمر لينتها بشيرا ام بديرا؟ لعلها كانت نذير
موت للفتى الصريع فهل حملت نفس النوء لكل من شهداها؟
ام ترى الفتى كان القرمان والاضحية بك دم ليعمد البشرى
للمحدودين وات اولهم؟ فأت من أحال دماء زين ودموع
هالة الى سطور ترصف طريقك الى الذرى؟

. فى شرفة «الكبيبة» المظلة على البحر تركه رفيق بعد ان وعده
بالتكبير فى الامر¹ وكان قد قرر الا يعود الليلة الى منزل الدابر
يريد ان يبقى وحده .. ليفكر ..

تناول هاتفه المحمول وطلب الرجل الرقيق وحين رد عليه كان
يصدق كعصفور تيقظ فى الربيع..

— لم يحدثنى حسن الظن بك يابوسف! كنت اعرف انك ستفعل
.. انت البطل الحقيقى . فقد اطيقت كفيك على الجحمر .. وتقدمت
الى الجحيم غير هياب.. احبك!

.. صوت المتوسط يهدر .. وتسطحب امواجه .. وينشق صدره من

اطراف تحرح لترقص تحت ساء القمر البدر . ويتقدم من بينها رين
العائدين امام . مازال الفتى الخنطى يتسم رغم مامر به من احوال..
ورغم قطرات الدم التى تتساقط من موضع الضربة التى صرعه
يفص عن نفسه اعشاب الاعماق الطحلبية . ويجلس فى الجوار
ويسأل عن هالة! يضع يوسف الشريط فى المسجل ويسمعه
صوتها تنسال دموعه ولكنه لا يصرط فى ابتسامته لم تكن هالة
تتحدث كما تحدثت من قبل .. كانت تغنى (بتحول الكلام فى
حضرة المحين الى غناء.. الى ترانيل)

ولفت رين نظره الى كروان يرق صادحا . وعندليب على سور
الشرفة بفرد وقبرة تشدو فى حصن عش قريب . اما البلب فقد
استقر فى حوض الزهور التى غرست اشواكها فى قلبه لترتوى
وتستنبت بنس الورد الاحمر.

. ويقول الفتى الخنطى الذى اكتست حلته بلون فخر لبلكى .
— الموت حديقة تسكنها الاطياف .. الموت جميل!

أيقظه رين الهاتف فى الصباح .. (الشرطة تبحث عنك يابوسف .
وتبه عليك بالمثل امام النيابة اليوم فى الواحدة)

. نفس الرجل محقق يبدو وكأنه يكره الصحافة والصحفيين
بشرع الجريدة امامه ويهتف

— ساخراً «السنا اولى بصيدك الثمين ياسيد يوسف؟»
— هى مهنتى أحاول ان اتقنها .

— لماذا لاتقنها وتساعدنا على تحقيق العدالة فى نفس الوقت؟
— لا ادري كيف ...

— الشريط المسجل بحوذتك احد الادلة التى بشكل اخفاؤها جريمة .
وعليك ان تسلمه!

— الشريط توثيق لتحقيقاتى الصحفى ووجوده بحوذتى صمان لا
استطيع التحلى عنه . ولكن توجد منه نسخة لدى رئيس التحرير
يمكنكم ان تأمروه بتسليمها..

كان المحقق يرمته ساخطاً.. «انت من اجرى الحوار معها.. وانت
من تأمره!»

وحين رفض باصرار امهله لثمانى واربعين ساعة بوجه اليه الاتهام
بعدها بعرقلة سير العدالة واخفاء الادلة وتوعده بأنه سيسعد كثيراً
بالامر بعيسه على ذمة التحقيق!

وفى الخارج كان الثلاثة بانتظاره.. رفيق .. ورحاب
وهانى..

وقف هانى على الضفة الاخرى عاقده الخاحبين متجهما . بينما
ضربه رفيق بقضته فى ذراعه مجبداً..

فعلت الصواب ..

— لم يكن هدفى ماتطن .. وسأواصل الشرية

ولدهشته ضحك رفيق ساخراً وهو يهتف .. سترى غدا!

ماذا ارى فى الغد؟ وماذا يعرف رفيق غير ما اعرفه؟ .. وهمست له
رحاب .. طوال الليل لم تقطع المكالمات

.. أحس بشغل يرسب فى أمعائه!.. وتساؤل معلق فى فراغ
الإحساس عن علاقة رفيق الحوينى بكل ما يحدث. . (أحقاً يقتصر
الأمر على دور الصديق المتلهف على حماية صديقه؟ . وماذا

يكون غير هذا؟. اللغة تمسك بخناقك وعقارب الوسواس
تزحف..)

عبر الشارع إلى هانى .. الذى كان حزينا أكثر منه غاضباً..

— لا نساء فهمى انت الآخر! لقد رفضت تسليم الشريط تمسكا
ببدأ مهنى ولا علاقة للأمر بأى مساومة مع الرمادى!

— لا اعرف عم تتحدث... وليس هذا ما يحزننى..

— فلنمض معاً إلى حيث يمكننا الكلام!..

. وبحر النهار لا يمكن أن يكون هو نفسه بحر الليل .. وكلام
النهار لا بهمس ... وأشجان الليل تهدد آلامها على وسائد
من أمل فى صباح آت.. أما ١٩٠ أحزان النهار فيكشفها
الخوف من ظلمة الأرق والمحور والوحدة . وأكثر ما راعه ان
يرى الدموع تترقق دون ان تفرط فى هاتين العينين المشرعتين
تحت حاجبين شقراوين (للمرة الاولى يلاحظ لون
الشعر...)

— ماذا بك يادكتور؟

— تعرف أن الجامعة قد فتحت أبوابها . والدراسة بدأت فى كل
الكلليات..

— أعرف .. وهذا ما يحدث كل عام.

— لكى لم أذهب فى أى عام مضى لأبدأ العمل وجدت نفسى
موقوفاً!..

.... موقوف؟..

ردها يوسف بلهجة من لم يفهم ورنه فى صوته تستنفه الامر

١٢- الخطوط الدوائر

لكن هانى يحملق فى امتداد الأورق البعيد دون ان يلتفت إليه..
ورما كان يخشى أن يحرك عينيه فتتفرط غلاله الدمع..

ـ اليوم كان موعد انعقاد مجلس القسم لتحديد المنهج للفرق
الأربع طلب منى رئيس القسم وعيماء تبرقان بومضات متشفية ان
التقى أولاً بالعميد... «لى معهم تاريخ حافل منذ عدت من اميركا
والتحقت بالعمل معهم.. احققهم واثارهم الثفاف الطلبة حولى
وشعبينى التى تعدت الآداب الى باقى كليات الجامعة. اتهموى
مرة بأننى اعطى دروساً خصوصية.. ومرة بأننى ابيع الامتحانات.
وحين فشلت محاولاتهم حاولوا استقطابى وجرى الى مستنقع
الفساد الذى يجمعهم

. كنت وحدى مع ثلاثة من المدرسين والمعبدین زين من بينهم
نخوض حرباً شرسة معهم.

ـ صمت هانى طويلاً.. ولم يستحبه يوسف.. أحس ان الرجل
يتأهب لسرد اسوأ ما فى الأمر.

. وجاء صوته.. مكتوماً.. مرخفاً. كأزيز مياه تغلى فوق الموقد..

ـ ذهبت لمقابلة العميد... واجهنى بشكوى مكتوبة حررها اربعة
طلاب.. يتهموننى..

اطلق زفرة حارقة قبل ان يكمل. يتهموننى بأننى شاذ وبأننى
أراودهم عن انفسهم واحرضهم على الفساد!

دائرة من فولاذ بارد

ماذا افعل يا صديقي؟ هتف هانى وهو يشيح بوجهه وقد تورد
بياض عييه تحت غلالة من دمع يتفرق ولا ينفرد! وقبل ان
يفيق يوسف من هول ما اخبر به ليفكر فى جواب على سؤال
الرجل كان هذا قد انفلت مبتعدا يكاد يجرى ..
فى مرور صوفى لم تساوره الرعة . جلس فقط امام رحاب وقد
التصقت ركنتاه بركبتيها وامسك بيديها فى يديه . وحكى لها ما
قاله الرجل الرقيق!

... عست ودكنت نظرتها واتى صوتها بعيدا .. غريبا..

- وهل ينكر؟ ..

- من ينكر ماذا؟

- صاحبك .. هل ينكر التهمة ام يخشى الفضيحة؟

لم يثر عليها طوال سى علاقته بها . فكانت تلك هى المرة الاولى
.. «كيف تجرؤين على مجرء السؤال؟ .. كيف تصممين ليرة
صوتك هذا الشك المقيت؟».

استنصص متعبدا عنها ذهبت تستوقفه وتقسم له انها لم تقصد ما فهمه

.. ولكن مزاجه كان قد تعكر بلا أمل في تدراك ما اندفع اليه .
تركها ولم يلتفت لنداءاتها التي لاحقته على الدرج .. وحين
لفحت وجهه تلك الريح الساردة التي تصصر في ذلك الشارع
الصغير المتعاند على طريق الكورنيش وشارع الترام سرت لها في
جسده قشعريرة اندزته باقتراب النوء، اما السحب الحاسية التي
حجبت مغرب الشمس فقد بدت قريبة توشك على السقوط .
وفي احشائه آله تقلص مباعث « هذه الليلة في الاسكندرية لا
تدو على ما يرام . وربما كان من الافضل ان يجمع مكرها في منزل
الداير »

على باب الشارع عند «القمة» لقيه على الاحسن . وبدا الامر
مفاجأة تحمل في ثنائياها شرا مستظريا .. تسمر امامه هاتفا .

- على ! ما الذي رماك على الداير ؟ .. الحاجة جازية ؟

- امك بخير يا يوسف ! .. انه حسن الغريب .. الشرطة ألقت
القص عليه منذ ساعة . فتشوا عرفته في البيت فوجدوا «ترتين»
حشيش تحت مرتبة السرير !

يا ولاد الحرام .. حسن الغريب حشاش اي نعم .. كذلك سيد
المرسى وكل رجال العائلة والشارع والحي . واللد بأسرها لكن
ترتين ؟ حسن لا يتأخر في الصنف وعمره ما حمل من الصاعقة
اكثر من قرش أو قرشين بكثيره أوقية .

استغاث رفيق الجويني الذي احضر محاميه وصحبهم الى
الكركون .

حاءوا بالغريب مكمل البيدين ..

- ما الذي حدث يا حسن ؟

- اخبرني انت يا بن والدي .. فأنا لا اعرف .. ورغم اني
«حشاش» قراري كما تعرف إلا ان عيسى لم تحتلها عمراى هذه
الكمية مرة واحدة .. ولا اظن مقدار ما عمرت به نافوخي طوال
عمرى يصل الي تربتين بحالهم .. لكن امرا غريبا قد حدث .. في
صندوق سيارة الشرطة الذي رموى فيه بعد القبض على ركب الى
حورى ذلك المحجر العليط ولكنى في حبى وهمس فى اذنى
خللى رين العابدين ينفعك من بطلع زين العابدين هذا لا
اعرف .

اطق الليل على منزل آل الشفقى في دابر البحر . يلفه السكون
ويرين عليه حزن داهل لا يصدق . الحاجة جارية نامت ودموعها
على حدها بعد ان حقنها الطبيب بمسكن . وباطة على كبستها
الاسنامولى تهيه بغير انقطاع وتمحط وقد ربطت رأسها بمدبل
الصداع (مدبل له حششان في طرفيه اعطته لها امرأة من ددو
العجمى) . وراما نجوب ارحاء المنزل بلا هدف وكأنها تبحث عن
شيء مفقود . اما سيد المرسى وعلى الاحسن فقد اهمكها مع «هل
الداير» ساهرين على مقهى «الزلسلى» يتحادلون في الخبة التي
بصبت بحبب ابليسى ليقع فيها حسن الغريب .

وفي حجرة الخلوس جلس يوسف في مواجهة رفيق .

- انت تعرف الغريب احسن منى يابن الخوينى هل يكذب ؟

هز رفيق رأسه نافيا بقوة .. «الحشيش مدسوس عليه» .. والكلام
الذى قاله له المخبر لا يعنى إلا احتمالا وحيداً .. وانت تعرفه .

- و انت ايضا تعرفه يا بن الشفقى .. ولطالما حذرت .. هل قرأت صحيفة الغد؟ .. ابي كان فى القاهرة واتى بها معه .. النائب العام امر بحظر النشر فى قضية مصرع زين العابدين امام .. يعنى حضرتك لن تستطيع مواصلة الكتابة .. مبروك.

- هدا اذاً ما كنت تعبه فى الصباح بعد خروجى من مكتب النيابة ما الذى تعرفه على وجه التحديد يا رفيق؟ ما هو دورك الحقيقى فى المسألة كلها؟ . اعرف ان مصالحك ومصالح ابوك التجارية هما فى الاسكندرية كلها من بطن الرمادى . واعرف ان ارواحكم بيده ولا حول لكم ولا قوة اذا تخلى عنكم أو عصب عليكم . وانا افهم هدا واستطيع ان النمس لكم فيه عذرا .. فقط اريد الحقيقة. مرت سحابة ثقيلة على وجه رفيق .. وبدا كمن يروح تحت ثقل باهظ

- اى حقيقة يا يوسف يا شفقى؟ الحقيقة سائلة امامك تكاد تنخرق عيس الابهد منذ اللحظة الاولى . ولقد سبهنتك وحذرتك ولكنك كنت تراهن على سراب احمق . من تكون لتناصب آل الرمادى العداء وتحاول ان تحقق شهرتك كصحفى على حسابهم؟ ها انت ترى ما سوف تجنى!

.. ظل يوسف صامتا يسائل نفسه «أحقا هذا هو رفيق؟ .. اذاً لحق على الارض الخراب! ولحق عليك الخسران المبین .. ولكن .. فلتلق الحسرة داخلك الى حين .. ولتزوج الحساب والمعتب .. ولتلق حاسا بأى توق لمعرفة الدور الذى يلعبه رفيق . والتساؤل عن مدى تورطه فى قصد الخيانة .. الآن لا يهم إلا مصير حسن الغريب

- فلاكن كما تقول يا رفيق .. ولكن حسن الغريب .. ألا يعنى لك شيئاً؟

اطرق رفيق مبتسماً .. وراح يزفر ويضرب فحذيه بكفيه ..
- ماذا باستطاعتى يا بن الشفقى؟ .. اخبرنى .. المخدرات تم تجريزها والمحضر قد تحرر وحسن سيرسل الى النيابة فى الغدا! ..
- باستطاعتكم كل شيء يا رفيق! ..

- تتحدث بضمير الجمع عن من يا يوسف؟ .. أتعدنى واحدا من رجال الرمادى؟ . ربما كنت أتعامل معه وربما كما قلت ترتبط مصالحنا به . وربما كنت اريد ان أقرب اليه بالضغط عليك ولكنى لست متآمراً يا بن الحاجة جازية!

فى حجرة السرج على الفراش .. كانت البرودة لادعة ولم يجد نفسه قدرة على النهوض ليخلق البافدة بل لعله استعذب وخزات الليل الخريفى الراحف

لماذا لم تخرج باطمة اغطية الشتاء؟ الشتاء مازال بعيداً والطقس يراوح هناك ابام حارة كثيرة يحملها نشرين . سبتمبر ينتهى عده .. قل ايلول .. ماذا يكون ايلول .. اهو اله .. ربما كان اشتقاقاً من ايل .. اله المنطقة الواقعة فى الغرب الآسيوى .. ايل .. و .. و .. و .. فتكون ايلول . لكن الطق اخرفى لا يستقيم . أو لعلها من «بعل» الاله الاخر المنافس .. فتكون بعلول ثم حرفت .. بعلول .. بهلول .. ماذا تقول يا يوسف؟ الاليل .. والبعل .. ديهو .. الهة الكنعانيين والفيلسيفيين والعسارنيين تهويماتك تحملك على حياح طائر مخمور .. تريد ان تتشاغل عن خبيتك الثقيلة .. ترتع فى فراشك

واخوك الاكبر ملقى على ارض التخشيب في الكراكون .. وباه
صوت من هذا؟ .. هانى يناديك .. هانى يقف على سور
الكورنيش عند مرسى الانفسوشى وينادى .. يا زين .. يا زين
العابدين .. يا ورد مفتوح جوه البساتين .. والورد كان شوك من
عرق البنى فتح ..

خط تحت الأستاذ

ساحة كلية الاداب فى منطقة الارارطة غوج بالطلاب . عاودته
ذكريات السوات الاربع احلى سوات العمر هنا كانت تواهيه
رحاب قادمة من كلية التجارة . وهنا تشاحرت مع ليلي زميلة حين
فاحأتهما بضحكان . وفي هذا الامر اختناً بعد هطول امطار بوة
الكرم وقد ابتلا وغدبته الروة ليقبل حدها وبرشف قطرات المطر من
عليه.

سأل من صادفه عن مكتب الدكتور هانى . نهامس الطلاب
وتبادلت طالبتان اشارات غامضة يعملوها ابتسام مكر . ثم تفرقا
جميعا ليتحمموا عند حائط بعيد ينظرون بحوه وهو يتجه نحو عرفة
فى قسم اللغة الانجليزية حيث جلس هانى وحده..

- ما الذى اتى بك؟

كان صوته مفعما بعدوانية مرثجة..

- اريد ان اطمئن عليك.

- لا تكذب. اعرف انك تريد ان تجعل من الشكوى المحرمة مادة
لتحقيق صحفى .. حسنا .. سأملئ عليك ما اريد قوله.. ما رأيك
فى ماشيت بعرض الصفحة يقول «أساذ الجامعة المتهم بالشذوذ

يقسم انه رجل؟». لم يكن بالحجرة غيرهما . ومع ذلك طلب منه
يوسف ان يتمالك نفسه.

- أتعرف ان نانسى قالت لصديقاتها وكل معارفها انها فسحت
خطتها لى بعد ان اكتشفت شذوذى؟
وهل تصدق انها لم تكتف بدلت وطلبت ان تشهد فى التحقيق
الذى تحريه الكلية حول شكاوى الطلبة الاربعة؟

عياا الرجل تبرزان من محجريهما بين هاليتين سوداويين.
وتلفيان بطل محضر على وحتين شاحبتين ترتجف فى احدهما
عضلة تبدو وكأنها وريد ينبض بسرعة رفة العين .. وازرقت
عند عارضيه شعيرات دموية دقيقة . فى لحظة كاشافة الرق
حيث تضاء الدنيا بلا سبب بالنور المهر .. رأى يوسف رأس
هاى كحمجمة مجردة مثقوبة فأغمص عينيه ليهاجمه الصداق
القديم . ويتقع السواد بالاشكال البيضاء غير المستقة . وأتى
اليه صوت الرجل يهدد بمزقا كصفير مرجل توشك مياهه ان
تنبحر

احسرى بالله عليك ماذا اقول؟ كيف انمى تهمة كهذه؟ كيف
اثبت لهؤلاء الوحوش الذين يتلمطون ويسيل اللعاب من اشدافهم
فى انتظار وليمة يأكلون فيها لحمى . كيف اثبت لهم اسى لست
شادا؟ هل اخطب فيهم؟ هل اقسام على كتاب الله؟ .. لماذا تعمض
عينك دونى وكأنك تكره ان ترائى؟ أنصدقهم يا يوسف؟
- افتح عينيك الملموتين وانظر فى وجهي!..

كانت لهجته صارخة باكية تشى بانهييار وشيك .. وبرد فعل

معكس فتح يوسف عييه وانتقل صداعه من الاحساس المباشر الى مكان ما ينتظر فيه متربصا.

- هل بدا لك منى ما يشير لديك شكاً؟

لا تفعل هذا بنفسك يا دكتور ألا تلاحظ انك تسير بقدميك داخل ارضهم الملعونة وتوشك ان تقع فى شركهم؟ واسك تفتح مسارب وعيك لشكك سيهاجمك انت نفسك؟.. تريد ان نحن يا رجل؟

انهار الرجل واقعاً على ركبتيه . واستسلم لنشيج عصبي اهتر له يوسف وانخل قلبه . وكاد يركى بدوره حين سمع الضجة فى الخارج . وداهمه احساس بحوف غير مسرر . فهرع ليستطلع ما يحدث . كان الممر الذى يقع فيه مكتب الدكتور هانى يكتظ بمجموعة من الطلاب . يقودهم ثلاثة من الشبان الذين اطلقوا لحاحهم مثلما يفعل اعضاء الجماعات الاصولية المفرقة فى ثرمتها

لافتات مكتوبة بخطوط عظيمة على اوراق الريستول التى تستخدم عادة لمجلات الحائط «اطردوا المأثون» «لا مكان للشواذ فى دار العلم»

من الطرف المقابل مجموعة اخرى اقل . بدا واضحا رفض افرادها لما يحدث . المجموعة تشابكان ويظهر حرس الكلية فى ثواب ليحيطوا باحميم . ويخفر بعض مكتب هانى الذى منع من معادته.. حاول يوسف ان يعود الى مكتب الرجل الرقيق.. لكن الضابط معه واصر على منعه حتى بعد ان اطلعه على بطاقته الصحفية..

. احس يوسف بأصابع الثلج تنشب اطافرها فى عنقه . وكل

المرينات فى الشوارع التى راح يطوف بها على غير هدى تشيح بألوان خريفية كابية .. الشمس فقدت وهجها واصفرت . والبحر كحلت ررقته وتحولت الى لون الرماد وهامات الاشجار فى مقبرة الشاطبي القديم تعرت من خضرتها الداكنة والقت بأوراقها على السور الابيض..

«احسنى ان اكرهك يا اسكندرية . لم أعهدك ابدا بهذه القسوة. ماذا جرى لك يا رجة الصدر والاحضان . يا مقصد الحائفين ومأمن المطرودين .. انت يا دفء النفوس المقدورة وزاد الجوعى والمحرومين . هل اصابتك لمة المدن الحجرية فتحولت الى منوى للاصنام ومتحف للاجساد المنحطة؟»

- تفهم لمن يا يوسف؟

- احدث نفسى حتى لا اجن..

- ألا تملك شيئا غير الجنون؟

والجنون نعمة من نعم الحرية . يحدث هذا حين تضيق لك الارض مما رحبت ولا تجد سبيلا للخلاص فتلجأ الى حيث . عد الاسئلة ولا تبحث عن اجابات . تلك المساحات من العتة الساكن اليليد . ترتادها فلا تنترك بل تعطيك وطنا .. وكسرة خبز .. وكأس شراب.

دائرة الطباشير الوهمية

لم يتصور ان يرد عليه فوزى الشماع بهذه السهولة .. وأقلقه أن يحىء صوته جذلانا مبتهجا «أديك تغطية حكاية الرجل الشاذ»

انها مؤامرة دنسة يا سيدى وسأكتب تحقيقا يكشف ابعادها وارسله اليك.

- هل يحوى التحقيق اشارة الى قضية المحذرات المتهم فيها اخوك الاكبر؟

الصوت هذه المرة يرتجف بلذة تشف عارمة.. واستطرد دون ان يدفع للفتى فرصة الرد..

- اذهب بالمرّة الى والد محبوبك قتيل مارينا واعرف منه حقيقة ما نشر اليوم عن اقراره بأن ابنه قد ابلغه بالهاتف من مارينا ليلة الحادث انه سيتحرر.. وانه لا يتهم آل الرمادى بشيء..

- ضغطوا عليه بالخوف أم أغروه بالمال؟

- كف عن التفلسف.. ولا تناقش خبرا نأكدنا من صدقه وافعل كما أمرك..

- سيادة رئيس التحرير .. «... أمك»!

ساد الصمت للحظات قبل ان يسمع صوت الشماع مرة اخرى ..

- انت مفصول .. وبلا رجعة هذه المرة...

جلس مكانه وظل يضحك .. ورفيق يرقبه عابسا ..

- اخذك باطة واحوك على اتصال بالهاتف يسالانى عنك

يقولان ان الشرطة تبحث عنك ..

... امسك بيد رحاب فاستكانت بين اصابعه .. رخصة .. باردة...

- يدك باردة ..

- قلبى دافئ ..

ثار رفيق «ألم تبق ذرة حياء لدى احدكما؟ ماذا اكون فى ناظريكما لتتسادل الغزل أمامى هكذا؟ ناقص ان تخلعا ثيابكما وتنضاحان وانا أتفرح لعلى قواد .. ولعل بيت اجوينى قد صار «حسيرة» اذهب لحال سبيلك الآن يا بن الشفقى .. فلا اريد ان تنتهى صداقتنا فى الكراكون .. اقسم برأس ابى لئن لم تختف من ناظرى الآن لاضرينك حتى تقطع النفس.

. احلقة تضيق يا يوسف . هلى اين تأخذك قدماك؟ الى داير البحر؟ ام غبريال .. ام لوران

. فى داير البحر لقيه على الاحسن ونصحته بأن يذهب طواحية الى الشرطة فزبانية الجحيم يتقاطرون على مصالح الاسرة . اعلق محل المانيساتورة اداريا لاسباب مضحكة واصطحبوا سيد المرسى الى حيث يستحوونه عن اقتناء اسلحة خطيرة بدون ترخيص .. حرزوا مقص القماش يا يوسف .. ومطواة قرن غزال قديمة .. وهجموا على محل النخف والانتيكات عندى وصادروا بضائع لا تقدر بشئ بحجة انها اثار مسروقة ونهوا على بالثول امام النيابة فى العد وضابط الحملة همس فى اذنى بأن كل شيء سينتهى على خير اذا جاء تليفون «معين» من القاهرة . ويوسف الشفقى وجده هو الذى يمكنه ان يجعل الجرم يدق .. فى مكتب الباشا مدير الامن . ماذا فعلت بهم يا بن ابى؟ كأنك حشرت «قرن شطة» فى مؤخرة كبيرهم .. ادركنا يا احلى ولا تدع الامور تتحدرو الى ما هو اسوأ . فى غبريال كان الباب مغلقا ولا احد يرد من داخل المسكن . قالت له النائعة التى ترابط بعرضتها امام المنزل .. ان «ماشوات» من

«القاهرة» جاءوا بسيارتين فارهتين .. واصطحبوا امام وزوجته النكلي والابنة .. ورحلوا.

- ترك مفتاحه عند رضوان البقال امانة تتسلمها اخته المقيمة فى اكو حال حضورها .. واخبره انهم لا يطبقون البقاء فى الاسكندرية بعد المرحوم .. وان ربنا كتب لهم الاستقرار بعيدا على امل الصبر والسلوان.

... الصخرة تنحدر من القمة لتسحق يا فارس المثل العليا وسادن العدل وخازن الحقيقة .. وانت وامثالك مجرد حصى فى المنحدر كيف امكنك ان توهم نفسك ولو للحظة انك قادر على وقف اندفاع الصخرة بأن تضع قدمك انت الحصاة فى طريقها؟ هاهى صحيفتك التى افردت صدرها لاتصارك المؤزر تنشر فى نفس المكان صورة بمرضها للاب المكلوم .. يتقبل عزاء رجل الاعمال والبسر وراعى ثلاثة ارباع الانشطة الفنية فى البلد الوجيه .. عبدالرحمن الرمادى .. يتعانقان امام الكاميرا وبالمناشيت العريضة يلهج عم امام بالثناء على مروءة الرمادى الكبير الذى آله وادى قلبه ذلك الحادث المؤسف الذى وقع بالقرب من منتجع الصيفى.

- ابنى زين رحمة الله عليه كان يعانى من متاعب نفسية فى العامين السابقين نتيجة بعض المشاكل التى تشبت بينه وبين زملائه فى الكلية .. كان يحرضه على اثاره المشاكل استاذ يدعى هانى الكردى .. يشهد الله اننى لم اكن مرتاحا لعلاقته بولدى .. طوى يوسف الصحيفة ولم يستطع ان يتم قراءة الموضوع ..

... فى لوران لم يقترب من فيلا الكردى .. توجه الى بيت نانسى .. وقدم نفسه ..

- انت صديقه؟

رشقته بنظرة حشدة فيها كل تحفزات العدا .. كأنها تنتظر مجرد كلمة تقترب من نخوم الفاجعة التى شبت حولها فى سرعة وجنون النار ..

- لم آت اليك صحفيا .. ولا بصفتي صديقاً لهانى .. جئت لأنى اخبيلت بك منذ رايتك تلك الليلة فى شرفة القنديل الاخضر .. أتعرفين انى حلمت بك؟ نعم .. نمت معك فى حلم غريب صحوت منه سعيدا غير نادم .. أدركت انى اشتهيتك كأننى .. وأحسست فيك بامرأة خلقت من اجلى .. لا تنظري الى بهذا الحذر ..

رغمته بنظرة مراعاة .. «مخيول انت مثله .. حقاً .. تقع الطيور على اشكالها .. تأتى فى هذه الظروف لتراودنى عن نفسى؟ .. ام تراها خدعة صحافية لتستدرجنى؟ .. تهالك جالساً دون ان تدعوه .. ومد ساقيه بطولهما حتى اصطدما بساقها التى تجاوره ..

- اجلسى ..

لا يعرف كيف اصدر الامر ولم يحسب كيف تلتقاء .. ترددت ولكنها لم تثر ولم تطرده .. امسك بمعصم يدها وجذبها نحوه .. وبسرعة آلية ركعت على ركبتيها ولملت عيناها وافترت شفتاها عن انتظار

- تعرف انه لم يقبلنى مرة واحدة .. تعرف انه لم يلمس يدي.
ولم يلتصق بي .. كان مخنثا!

... والاسمية غريبة حيث يكتنف الرماذ كل المساحات .. وتسلسل
لسعات ريع شتوية هاجمته ليلة خريفية بلا مبرر .. وحين كررت
نانسى الكلمة للمرة الثانية صفعها! لم تكن صفعة غضب .. فهو لم
يكن غاضبا .. فقط احس بأن عليه ان يضر بها .. وتحقق ظنه المخنث
بعيدا في عقله الباطن .. فقد تشبث بكفه التى صفعتها .. ومسحت
بها خدها ثم اراحت عليها شفتيها .. وعيناها التى انطبق جفناها
فى نصف اغماضة نهيمن فى غيمة لا تلبث ان تذوب فى دمعات
متتالية ساخنة تحرق اديم يده ..
- كم دفعوا لك؟ ..

من بين قبلاتها كان صوتها يلقى بعبارات برقية خاطفة ..

- عندى مال يشترهم جميعا ..

- اذاً فهو الانتقام؟

- لا احد يرفضنى ثم ينجو ..

.. مرت اصابعها تبحث حتى عثرت على سحابة سراوله فانتفض
يدفعها بعيدا .. تعلقت بساقه فركلها .. هذه اللبوة التى اشتهاها
ذات مساء وأثاها فى الحلم .. بدت له الآن رخيصة مقرفة وكان
عليه ان يسابق نفسه الى هناك ..

على صخر "بير مسعود" جلس القرفصاء باسطا ذراعيه على ركبتيه
.. الشمس لم تعد هناك وأثاها الشفقية المحمرة ذابت فى ركام
غيم ليلى زاحف.

.. آه لو استطاع ان ينام .. البحر عال .. لعله المد .. ولعله تيار
عاصف يبشر بمقدم نوة مبكرة .. شىء ما اصاب انتظام
الانتقال الفصلى .. فى مثل ايام مقابلة من العام الماضى واعوام
قبله كان تشرين اكثر دفئا وكان يختزن الكثير من وهج الصيف
الراحل ..

آه لو ينام .. رذاذ الماء الفوار يدغدغ خديه واثفه فينبهه الى الليل
القريب .. نهض واقفا وقد صدر بداخله قرار .. سأنهى كل شىء ..
.. أيقظته شمس مبكرة فى حجرة البرج وأسلمته الى الضحى فى
مكتب النيابة .. وضع الشريط المسجل امام الرجل الذى مزج
البسمة بالكثيرة فى اعتياد مهنى مدرب ..

- استجابتك لمنطق العقل أنقذتك فى الوقت المناسب.

- تظن ان هذا الشريط سيدبح لك قضية تدوى احداثها وترفع من
شأنك فى سلك العدالة والقضاء؟ .. واين تفعل هذا؟ فى المريع؟
خذ حذرك يا فارس الفرسان .. فهم ينتظرونك عند النواصى
والزوايا وخلف منحنيات الدراج .. ربما تجد نفسك مدانا برشوة لم
تطلبها أو مقتصبا لامرأة لم ترها .. أو ربما يفعلون بك مثل ما فعلوا
بالشاهد الاول فى القضية .. الدكتور هانى الكردي ..
سمعت طبعا عما فعلوه لينكلوا به؟

لم يهتز رجل النيابة ولم تغب ابتسامته .. فقط تلاشت تكشيرته ..

- الدكتور صديقك لم يعد شاهدا يعتد به يا حضرة الصحفي ..
انت لا تعرف اين هو الآن؟

..... اين؟ ..

| | |
|-----------------------|--|
| اسم الموضوع | |
| الفصل الأول | |
| خط النهار في يوم سابق | |
| الفصل الثاني | |
| خط الشفق التالي | |
| الفصل الثالث | |
| دائرة القمر المخنوق | |
| الفصل الرابع | |
| خط الدم | |
| الفصل الخامس | |
| خطوط الكف | |
| الفصل السادس | |
| الدوائر المغلقة | |
| الفصل السابع | |
| الخطوط الحمراء | |
| الفصل الثامن | |
| خطوط الطول | |
| الفصل التاسع | |
| مسحني الخط الدائري | |
| الفصل العاشر | |
| خط في منتصف الدائرة | |
| الفصل الحادي عشر | |
| دوائر الحصار | |
| الفصل الثاني عشر | |
| الخطوط والدوائر | |

- حولناه بالامس الى مستشفى الامراض النفسية بالمعمورة لوضعه تحت الملاحظة وموافاتنا بتقرير رسمي عن حالته..

.... لم يسمع يوسف كلمة واحدة من كلام حسن الغريب بعد الافراج عنه .. ولا انتبه لنصائح علي الاحسن .. أو غمغمات سيد المرسي .. ولم تؤرقه نظرات العتب في عيني باطة .. ولا زمجرات الاحتجاج على لسان راما..

تركز كل انتباهه في همس الحاجة جازية بأذنه وهي تحتضنه..

- لا تتخل عنه في محنته يا ولدي..

انتفض بحملق فيها .. ولكنها كانت قد استسلمت لنومها العميق..

خط يحيط العنق كالقلادة

في ذلك الصباح من تشرين الثاني كانت الشمس غائبة .. وامطار نوة المكنسة تضرب زجاج النافذة العريضة في حجرة البرج .. وراما تضع امامه صينية الافطار وجريدة الصباح ..

- في الجريدة صورة لصديقك الذي كان يزورك هنا ..

من ؟ .. فتح الجريدة وبحث حتى وجد الصورة والخبر ..

... الرجل الرقيق ..

في حجرته بالمستشفى صحا فجرا .. وشنق نفسه بسلك المصباح ..

وعبر غلالة دمع تتسرقق من عينيه مع غلالة مطر على الزجاج ..

توهجت ملامح في ثنايا البرق الوامض خلف النافذة .. لاثنين ..

فتى حنطى .. ورجل رقيق .. وكنا يتسمان..



اسامة انور عكاشة

● من أشهر كتاب الدراما التلفزيونية في مصر والعالم

العربي .

● بدأ رحلته الإبداعية بكتابة القصة القصيرة في بداية الستينيات ونشر أعماله في الدوريات الأدبية المصرية والعربية.

● كانت نقطة التحول الفنية عام ١٩٧٦ حين دخل مجال الدراما التلفزيونية ليقدّم للمشاهد العربي أكثر من ٣٠ مسلسلا تلفزيونيا أهمها المشربية وأبواب المدينة ورحلة السيد أبو العلا البشري والراية البيضاء وعصفور النار وضمير أيلة حكمت وليالي الحلمية (خمسة أجزاء) وأرابيسك وامرأة من زمن الحب ويزينيا بالإضافة لعشرات السهرات الدرامية والأذاعية وبعض الأفلام السينمائية

● من مؤلفات عكاشة القصصية والروائية والمسرحية خارج الدنيا ومقاطع من أغنية قديمة وأحلام في برج بابل والناس اللي في الثالث وليالي الحلمية والإسكندراني وأوراق مسافر وهمس البحر وبتاريخ خريف (نثر فني) وأخيرا منخفض الهند الموسمي (رواية) الصادرة عن كتاب «الجمهورية» بعد نشرها سلسلة في العدد الأسبوعي منذ شهر .

رقم الإيداع ٢٠٠١/١٣٤٩٠

الترقيم الدولي ٢ - ٣٣٧ - ٢٣٦ - ٩٧٧ ISBN